

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

عرفت الشام الرسائل الديوانية منذ عهد معاوية أول خلفاء بنى أمية، لما كان من اتخاذه لديوان الرسائل، وأتخذ معه ديوانا للخراج وديوانا ثانياً للخاتم^(١) أو ختم الرسائل التي تصدر عنه الولاية، ويهمننا خاصة الديوان الأول: ديوان الرسائل، إذ مضى معاوية ومن تلاه من الخلفاء الأمويين على اختيار من يقومون عليه، بحيث يكونون في الذروة من البيان والبلاغة لزمانه، وقد ظلوا طوال القرن الأول يختارونهم من العرب، ويذكر الجشيارى إثباتاً طويلة بأسمائهم. أما ديوان الخراج فكان يقوم عليه كتاب من الموالي فاصبح كتابه من العرب، وسرعان ما عنى الكتاب الأجانب بتعلم العربية وأخوا يشاركون في ديوان الرسائل^(٢).

وما نصل إلى زمن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٤-١٢٤هـ) حتى يصبح زمام ديوان الرسائل في دمشق بيد مولى لهشام هو سالم^(٣)، وكان يتقن اليونانية ونقل عنها بعض رسائل لأرسططاليس^(٤)، ومعنى ذلك أنه كان مثقفاً ثقافة عريضة بالعربية والإسلام واليونانية، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأول في تاريخ العرب وأدبهم ويقول أن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة^(٥) واحتفظ الطبري برسالة له كتبها عن هشام إلى خالد القسري، وهو تحمل عناية واضحة بالأسلوب وما يوفره له من الأزواج والترادف الصوتي. وتبعه في النهوض بالرسائل السياسية تلميذان: أحدهما

(١) الوزراء والكتاب للجشيارى (طبعة الحلبي) ص ٢٤.

(٢) انظر في ذلك الفن ومذاهبه في النثر العربى ص ١٠٣.

(٣) الجشيارى ص ٦٢.

(٤) الفهرست ص ١٧١.

(٥) انظر الفهرست ص ١٧١، ١٨٢.

من بيته هو ابنه عبد الله، وثانيهما من غير بيته هو عبد الحميد الكاتب الذي انتهت إليه رئاسة ديوان الرسائل في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وهو أبلغ كتاب الدواوين وأشهرهم حتى زمنه، لبلاغته وقد ضربت بها الأمثال، فقيل: "بُدئت الكتابة عبد الحميد وخُتمت بان العميد"^(١) ويقول ابن النديم: "عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا، وهو الذي سَهّل سبيل البلاغة في الترسل"^(٢) ويقول المسعودي إنه "أول من استخدام التعميدات في الكتب"^(٣) " واشتهر برسالة وجه بها إلى الكتاب، وهى تدل على نمو طائفتهم وأنهم أخذوا يشكلون فئة بارزة في حياة الدولة والمجتمع، وفيها ينصحهم أن يلموا بالثقافة الإسلامية والعربية والأجنبية^(٤). وكان يعرف الفارسية، ويقول صاحب الصناعتين إنه استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي^(٥) " وذكر الجاحظ أنه ترجم بعض كتب من الفارسية. وتحفظ الكتب الأدبية ببعض رسائله السياسية، ومنها رسالة^(٦) طويلة كتب بها عن لسان مروان بن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجه لمحاربة بعض الخوارج، وهى أشبه بكتيب يشتمل على دستور محكم لقواد الدولة يضع لهم نظاما دقيقا لجيوشهم وتديبر شئونها من الوجهتين المادية والحربية. وبمجرد أن تحولت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين وحلت بغداد محل دمشق أصبحت هي والشام جمعية ولاية تابعة للعباسيين، ولم يعد لديوان الإنشاء كبير أمر في عصر الولاة والطولونيين والإخشيديين، بل لقد تعطل تماما، ولم نعد نسمع لدمشق أو للشام بكتاب كبير، إذ تحولت الكتابة الديوانية وتحول معها ديوان الإنشاء إلى بغداد، وأصبحت طوال القرون: الثاني والثالث والرابع متشديدين إلى ديوان بغداد وكتابه العظام، وأخذت الدولة الطولونية تعنى في الفسطاظ بهذا الديوان وظهر فيه ابن عبد كان وأضرابه، واستمر هذا النشاط زمن الإخشيديين ولكن شيئا منه لم يسقط إلى الشام، إذ كانت حينئذ ولاية تابعة للطولونيين والإخشيديين جميعا، وظل كثير من بلدانا تابعا لمصر في زمن الدولة الفاطمية، ولم

(١) اليتمية للثعالبي (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) ١٥٤/٣.

(٢) الفهرست ص ١٧٠.

(٣) مروج الذهب للمسعودي (طبعة دار الرجاء) ١٧٨/٣.

(٤) الجهشيارى ص ٧٣ وما بعدها.

(٥) الصناعتين (طبعة الحلبي) ص ٦٩.

(٦) صبح الأعشى للقلقشندي ١٩٥/١٠ وما بعدها.

ينشا حينئذ في دمشق أو غيرها ديوان إنشاء ينهض الكتاب فيه بالكتابة الديوانية، حتى إذا أطل دمشق حكم دولة الأتابكة البورين (٤٩٧ - ٥٤٩ هـ) رأينها تعنى بهذا الديوان، ويشتهر ببلاغة الكتابة فيه كتاب مختلفون، لعل أهمهم سني الدولة^(١) ابن أخي الشاعر ابن الخياط الذي ترجمنا له بين شعراء المديح، ويذكر له العماد قطعاً مختلفة من منشوراته وتقاليده، من ذلك قوله في منشور بالوزارة:

"لما كان محله عندنا خطيرا، ومكانه لدينا أثيرا، لا قرين يجاربه، ولا نظري يماثله ويباريه، ولا متناول يطمع في إدراك معاليه، شددنا بركنه أركانها، وسددنا به مكانها، وعولنا عليه فيها، واستنهضناه لتوليها، ورأينا كفاها وكافيا".

وكتاباتة على هذا النحو دائما مسجوعة سجا فيه غير قليل من الشراقة والعذوية. وكتب بعده لسلطين دمشق البيوريين عبد الله بن أحمد الحميدي المعروف باسم ابن النقاد^(٢) الكاتب الدمشقي، وظل يكتب لهم إلى أن تملكها منهم نور الدين محمود، وكانت له مدة يسيرة، وتوفى سنة ثمان أو تسع وستين وخمسائة، ولم يذكر العماد شيئا من كتاباته.

ويُظَل حلب ودمشق. وبلداهن الشام الشمالية عهد نور الدين (٥٤١ - ٥٦٩ هـ) وكان وزيره ومتوفى دواوينه وكتابة الإنشاء فيها خالد بن محمد بن القيسراني، وهو ابن الشاعر المترجم له بين شعراء المديح، ويقول العماد فيه: "كان نور الدين رفعه وأصطنعه، وبلغ منه مبلغا من الأمر كأنه أشركه في الملك معه"^(٣) ويذكر له ابن واصل توقيعا كتبه باسم نور الدين لرفع المكوس والضرائب الباهظة عن كاهل رعيته في البلدان التي أظلمها حكمه جاء فيه^(٤).

"وقد علمتم - معاشر الرعايا وفقكم الله ورعاكم - ما كان مرتبا من المظالم المجحفة بأحوالكم والمكوس والمستولية على شطر أموالكم، والرسوم المضيفة عليكم في أرزاقكم، والمؤن التي تساهمكم في منافع أملاككم، واستمر ذلك عليكم إلى أن فوض الله - عز

(١) انظر في سني الدولة الخريدة (بداية الشام) ص ٢٢٧.

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣١٤/١ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٢٢٧/٧.

(٣) الخريدة ١٢٥/١.

(٤) انظر مفرج الكروب لابنواصل ٢٧٠/١ وما بعدها.

وجل - لنا - تدبير أموالكم، واسترعانا على كبير كم وصغيركم، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولاً فأولاً، ولم نبتغ في إقراره على وجوهه شُبْهة ولا تأولاً".

ويُلي ذلك بيان بما أسقط نور الدين عن كل بلد من المكوس والضرائب. وكان من كتابه أبو اليسر^(١) شاكر بن عبد الله المعري كتاب الإنشاء بدمشق، واستغفاه من الخدمة سنة ٥٦٣ فأقام العماد الأصبهاني مقامه، وأضاف إليه - كما هو معروف - التدريس في مدرسته المعروفة باسم المدرسة النورية الشافعية. ووصله القاضي الفاضل صلاح الدين فرسم باسكابه في ديوانه بالشام، وسنفرد له ترجمة مجملّة، وهو أكبر كتاب الدولة الأيوبية في دمشق والشام غير منازع. وتتحول الشام إلى إقطاعات بعد زمن صلاح الدين، حتى ليوشك أن يكون لكل بلد أمير أيوبي، ويتخذ كل أمير لنفسه كاتب رسائل نابه. وكان بينهم غير مصري مثل ابن النبيه كاتب الأشرف موسى، وهو مشهور بين شعراء الغزل في مصر، ومثل عبد الرحم بن علي، شيث المتوفى سنة ٦٢٥ صاحب ديوان الإنشاء للمعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق، وله كتاب في عمل الدواوين وتقاليد الكتابة الديوانية لزمن الدولة الأيوبية سماه "معالم الكتابة ومغانم الإصابة" وهو مطبوع قديماً ببيروت، وهو أحد مصادر كتاب صبح الأعشى للقفشندي. ويكثر منذ هذه الدولة ودولة المماليك أن يعهد برياسة ديوان الإنشاء بمصر إلى من يظهرون تفوقاً في إسناد هذا الديوان إليهم بدمشق، ونذكر منهم تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي المنشئ المتوفى سنة ٦٩١ للهجرة، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة في عهد الظاهر بيبرس وقلاوون، وظل يترقى إلى أن ولى كتابة السر، ويقول ابن تغرى بردى: "لكلامه رونق وطلاوة" ويذكر من إنشائه كتاباً عن قلاوون إلى صاحب اليمن بفتح طرابلس واستيلائه عليه من أيدي الصليبيين نوه فيه باستعلاء قلاوون على غيره من الحكام القاعدين عن منازل حملة الصليب الغارقين في اللهو، يقول^(٢):

"وكانت الخلفاء والملوك ما فيهم إلا مَنْ هو مشغول بنفسه، مكبّ على مجلس أنسة، يرى السلامة غنيمة، وإذا عَنَّ له وَصَف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٢ وراجع في أبي اليسر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٠٤.

(٢) النجوم الزاهرة ٣٢٣/٧ وراجع في ترجمته ٣٤/٨.

الهزيمة، قد بلغ أمله من الرتبة وقنع من ملكه بالسكة والخطب، وأموال تُنهَب، وممالك تذهب".

ويريد بالسكة ضرب النقود ونقش أسمائهم عليها كما يريد بالخطبة دعاء خطباء المساجد لهم في ختام خطاباتهم يوم الجمعة. وتولى بعده كتابة السر في القاهرة ابنه عماد الدين حتى توفي سنة ٦٩٩ وشغل مكانه أخوه علاء الدين في عهد محمد الناصر بن قلاوون.

وأكبر كتاب الشام الذين رأسوا ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة الشهاب محمود المتوفى سنة ٧٢٥، وقد مرت ترجمته بين شعراء المديح واحتفظ القلقشندي في صحبه بنماذج كثيرة من رسائله وتوقيعاته الديوانية، وذكر هو نفسه منها طائفة في كتابه "حسن التوسل إلى صناعة الترسل" وذكر ابن حجر عن الصفدي أن رسائله تدخل في ثلاثين مجلدًا وأن بعض الفضلاء اختار منها مخلصين، ومن قوله في التهئة بتقليد سيف^(١):

"وقلده مِنَّنًا: سيفًا تلمع مخايل النصر منغمده، وتشرق جواهر الفتح في فرنده، وإذا سابق الأجل إلى النفوس عرف الأجل قدره فوقف عند حده، ومتى جرده على ملك من ملوك العدا وهت عزائمهم، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه، وعلم أنه سيفنا الذي على عاتق الملك الأعز نجاده وفي يد جبار السموات قائمة".

ومن كبار كتاب الشام الذين عملوا فيها وفي مصر في دواوين الإنشاء صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ وسنخسه بكلمة، ومنهم ناصر الدين محمد بن محمد الحموي المعروف بابن البارزي المتوفى سنة ٨٢٣ تولى قضاء حماه ثم كتابة سرها وصحب السلطان المؤيد شيخ أيام نيابته بدمشق، وقدم معه إلى مصر حين تسلطن عليها سنة ٨١٥ وعينه كاتب السر بها إلى أن توفي، وقد احتفظ القلقشندي له بعهد عن الإمام المستعين (ال خليفة العباسي الميم بمصر حينئذ) للسلطان المؤيد شيخ، وفيه يقول^(٢):

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل طبع المطبعة الوهية ص ١٠٠. وفرند السيف: لمعان صفحته. والقوادم: ريشات الطائر الكبار في جناحه. ونجاد السف: حمائله.

(٢) صبح الأعشى ١٢١/١٠ وانظر في ترجمته النجوم الزاهرة ١٤/١٦١.

"الحمد لله الذي جعل الدين بنصره مؤيداً، وانتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهقات عزمه بادئه بائدة العدا، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل، فاستغنى والله الحمد - بسعيد السعداء، واصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه، فأصبحت مأمونة الرءاء، آمنة من الردى، وأمتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سَهْمُ تدبيره الشريف فيهم مسدداً".

وقدرة ابن البارزى الإنشائية تتضح في هذه السطور، إذ يطيل سجعته وقد جعل الدال قوافيها جيعاً، وهو إنا يطيل سجعته ليضيف إليها الجنس كما في "بائنة وبائنة" و"أحكام وإحكام" و"الرءاء: الثوب (كناية عن الأحوال) والرءى: الهلاك. ويفسح أيضاً للسجع الداخلى في السجعة مثل: "عوارف العدل ومعارف الفضل".

وعين ابن البارزى في ديوان الإنشاء أديباً مواطناً له هو ابن حجة الحوى المتوفى سنة ٨٣٧ وسنفرده له كلمة قصيرة، وخلف ابن البارزى في كتابة السر ابنه كما لالدين، وكان تارة يُعزّل وتارية يعود إلى كتابة السر حتى وفاته سنة ٨٥٦.

وراء هؤلاء الكتاب الديوانيين الذين بلغ من نبوغهم في الكتابة الديوانية أن نقلتهم الدولة إلى اقاهرة في ديوانها الكبير كتاب كثيرون كانوا يكتبون لحكام ابلدان الشامية، وأهمهم كتاب ديوان دمشق إذ كان بها نائب السلطان، وكان ديوانها لذلك أهم الدواوين الشامية، ونذكر من كتابها علاء الدين على بن محمد بن سلما المعروف بابن غانم المتوفى سنة ٧٣٧ ومن نثره ي وصف قلعة^(١):

"لا ترى العيونُ لبعده مراماها إلا شَرَّرا، ولا ينظر سكانها العدد الكثير إلا نَرَّرا، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بمالها من الأبراج، ولها من الفرات خندق يحقها كالبحر إلا أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج".

ونذكر من أهم كتاب السر في دمشق أو بعبارة أخرى رؤساء ديوان الإنشاء بها حفيد تاج الدين بن الأثير المذكور آنفاً، وهو كمالالدين محمد بن إسماعيل ثم ابنه عبد الله، تولى كتابة السر بدمشق فترة وعُزل سنة ٧٦٤ وتولاها فتح^(٢) الدين بن الشهيد

(١) فوات الوفيات ١٥٩/٢. النظر الشرز: المستهين، فرات: حلو. أجاج: شديد الملوحة.

(٢) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٥

حتى توفي سنة ٧٩٣ وكان بارعا في الشعر وكتابة الرسائل، ونظم السيرة لابن هشام في رجز بلغت عدته خمسين ألف بيت. ومنهم صدر الدين علي بن محمد المعروف بابن الأدمي المتوفى سنة ٨١٦ ولى نظر جيش دمشق، ثم كتابة سرها ثم قاضى قضاتها، ونقله معه المؤيد شيخ حين اصبح سلطاناً لمصر سنة ٨١٥ وجمع له بين القضاء والحسبة وفيه يقول صاحب النجوم الزاهرة: "كان إماما بارعا أديبا فصيحاً ذكياً"^(١).

وما زالت الكتابة الديوانية مزدهرة بدمشق إلى أن استولى عليها العثمانيون سنة ٩٢٢ وأصبحت اللغة التركية اللغة الرسمية للدواوين فيها وفي غيرها من بلدان الشام. ونقف قليلا عند ثلاثة من كتابها النابهين.

العماد^(٢) الأصبهاني

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ وقدم به أبوه إلى بغداد واستقر بها. وانتظم هو في سلك المدرسة النظامية مع لدته من النائشة، وتنفقه بها، وتتقف علوم العربية، وعاد مع أبيه إلى أصبهان سنة ٥٥٢، ولم يلبث أن رجع إلى بغداد، واتصل بوزيرها عون الدين بن هبيرة فولاه نظر البصرة ثم نظر واسط. وتوفى ابن هبيرة سنة ٥٦٠ وسُجن العماد فيمن سُجن من أتباعه، ورُدَّت إليه حريته سريعا، غير أنه لم يستطع أن يستردَّ مكانته، ورأى أن يفارقها، وولى وجهه نحو دمشق، ونزلها سنة ٥٦٢ وكانت قد أصبحت تابعة لنور الدين محمود، وقدمه قاضى دمشق كمال الدين بن الشهرزوري إلى أمير معهم من أمراء نور الدين هو نجم الدين أيوب، فاكتسب حظوته وحظوة ابنه صلاح الدين، ثم قدمه القاضي إلى نور الدين فأعجب به وأتخذ صاحبا سره، وبعث به رسولا إلى الخليفة المستجد ببغداد، ونجح في مهمته. وعاد ففوض إليه نور الدين سنة ٥٦٧ التدريب في مدرسته النورية التي أنشأها بدمشق

(١) النجوم الزاهرة ١٤/١٢٢.

(٢) انظر في ترجمة العماد: معجم الأديباء ١١/١٨ وان خلكان ١٤٧/٥ والروضتين في مواضع مختلفة والجزء الثاني من مفرج الكروب لابن واصل وعبر الذهبي ٤/٢٩٩ والوافي بالوفيت ١/١٣٣ وطبقات الشافعية للسبكي ٦/١٧٨ والبداية والنهاية ١٣/٣٠ ومرآة الجنان ٣/٤٩٢ والشذرات ٤/٣٣٢ والجزء السادس من النجوم الزاهرة (انظر فهرسه. وفي كايه: البرق الشامي والخريدة أخبار وأشعار كثيرة له.

لدراسة الفقه الشافعي، وقد سماها من أجله تكريماً له المدرسة العمادية. ولم يلبث أن أضاف إليه رئاسة ديوان الإنشاء. ولما توفي نور الدين سنة ٥٦٩ عزلت حاشية انه إسماعيل العماد من وظائفه، فترك دمشق قاصداً بغداد، ومرض في طريق إليها بالموصل، وعلم أن صلاح الدين قدم من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء عليها، فعاد تواء، والتقى بصلاح الدين في حمص، وقدمه إليه وزيره القاضي الفاضل، ورغبه في الحاقه معه بخدمته، فاستكتبه صلاح الدين وظل يلزمه في الشام ورحل معه ذات مرة إلى الديار المصرية. ولما توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ كتب من بعده لابنه نور الدين حاكم دمشق، حتى إذا استوزر ضياء الدين بن الأثير استعفاه من عمله. وزار مصر حينئذ، ثم عاد إلى دمشق فلزم داره يصنف ويؤلف حتى توفي سنة ٥٩٧.

والعماد الأصبهاني أديب كبير: كاتب وشاعر، وكان له ديوان كبير في أربعة مجلدات وديوان صغير كله رباعيات، وقد أنشدنا بعض شعره في حديثنا عن شعراء المديح والرثاء، وكان يجيد الفارسية لغة موطنه ومنها نقل كتاب كيمياء السعادة للإمام الغزالي. ومّر بنا في حديثنا عن التاريخ وكتبه ذكر مؤلفته التاريخية: كتاب البرق الشامي الذي وصف فيه أحداث حياته منذ إنتقاله من العراق إلى دمشق وأثناء خدمته لنور الدين وصلاح الدين وفتوحاتهما وهو في سبعة مجلدات، وكتاب الفتح القسي في الفتح القدسي وصف فتح صلاح الدين لبيت المقدس، وكتاب نصره الفطرة وعُصرة القطرة في تاريخ السلاجقة ووزرائهم. وذكرنا في غير هذا الموضع - أن الفتح البنداري اختصره باسم "زبدة النصر ونخبة العصرة" وأنه طبع في القاهرة باسم تاريخ دولة آل سلجوق. والكتاب الرابع كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، وهو في شعراء القرن السادس من الأندلس إلى أواسط آسيا حتى تاريخ كتابته في أوائل العقد الثامن من القرن السالف. وله وراء ذلك كتب تاريخية لم تصلنا منها كتاب الغنى والعقبى في بيان الأحداث التي تلت وفاة صلاح الدين حتى سنة ٥٩٢ وكتاب نحلة الرحلة وصف فيه رحلته إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين، وكتاب خطفه البارق وعطفه الشارق في ذكر أحدا من سنة ٥٩٣ حتى سنة وفاته. وقد عمم العماد في كتاباته التاريخية السجع وبعض المحسنات البديعية وخاصة الجناس، ما يدل - رغم ما فيها من تكافة - على مهارة أدبية رائعة.

وكانت له رسائل ديوانية كثيرة تشغل المجلدات الضخام، وكان كلما فتح صلاح الدين فتحاً دَحَرَ يه حَمَلَة الصليب ومزقهم تمزيقاً كتب بذلك إلى الخليفة ببغداد وإلى القائمين على البدان من الحكام، بشر بالنصر المبين في سبيل الدين. ونقتطف قطعة من كتاب عن صلاح الدين إلى الخليفة يخبره فيه بضم الموصل - بعد موت صاحبها غازي بن مودود - إلى دولته ومملكته، يقول فيه العماد:

"لإخفاء أن مصر إقليم عظيم وبلد كريم، أنقذها الله من عيد بنى عُبيد الفاطميين وأطلقها بمطلقات أعتنا إليها من عناء كل قيد، وفيها شيعة القوم، وهم غير مأموني السر إلى اليوم. بها فتق لأعضل زنقه، واتسع على الرافع خرقه، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصري إليها، وله خمس سنين في بيكارها (حربها منتقما من كفارها متحملاً لمشاقتها على غلاء أسعارها).

وقد جانس العماد في أول القطعة بين "عبيد وعُبيد" وبين "أطلقها وبمطلقات". وتدل القطعة دلالة واضحة على أن جيش صلاح الدين المدمر لحملة الصليب كان مصرياً على الأقل في جمهوره الأكبر. ويذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العماد من البشارات في كل انتصار لصلاح الدين على حملة الصليب، وما كان أكثر انتصاراته، ويذكر أنه حين فتح بيت المقدس كت العماد سبعين بادرة، وكانت البشارات رسائل طويلة بصف العماد فيها المواقع وصفا تفصيلاً. ويسوق المؤرخون بشارته بهذا الفتح العظيم التي كتب بها إلى الخليفة ببغداد، وفيها يقول، بعد إطنابه في تحميدها وشكر الله على سابغ نعمائه على الإسلام والمسلمين.

"هذا الفتح العظيم، والنُّجْحُ الكريم، قد انقضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وجيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنيه (انفكاك عقده) وتقاشرت عنه طول الهمم، وتخالفت عن الانتصالي له أملاك الأمم، فالحمد لله الذي أعاد القدس (الشريعة) إلى امقدس، وأعاده من الرجس، وحقق من فتحه ما كان ف النفس، وبدل حشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس، وجعل عز يومه ما حياً نثلاً أمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهاد والضلال من البطرك والقَسِّ، وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس.. وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل أحمد (يريد يوم الأحد) وقمع من كان يقول:

أن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح".

والطباق كثير في القطعة، والجناس ينثر فيها من حين لآخر. وقد يُكثر منه في بعض رسائله كثيرة مفرطة، بل هو أهم محسن بديعي أكثر من استخدامه، وعابه الصفدي بهذا الإكثار، متمثلاً بقوله في جواب مكاتبه:

"وقف الخادم على الكتاب وأفاض في شكر فضل فيضه المستفيض، وتبجج (إشراق) وجه وجاهته وتارج (انتشار) نبأ نباهته ما عرفه من عوارفه (فواضله) البيض".

يقول الصفدي معقبا على هذه السجعة الطويلة وجناساتها الكثيرة: "انظر إلى قلق هذا التركيب وتعسفه في هذا الترتيب". ويقول السبكي معلقا على كلام الصفدي: "الأمر كما وصف، ولقد مَجَّ سمعي فواتح أبواب كتاب خريدة القصر، لما يكثر فيها من الجناس وردَّ العجز على الصدر". على أن الصفدي نفسه يلاحظ أنه "حين يخلو كلام العماد المسجوع في رسائله وكتبه من الجناس الكثير يعذب في السمع وقعه، ويتسع في الإحساس صُفْعَة (جانبه) ويرشف اللُّبُّ مدامه، ويكون عند مَنْ له ذوق أطيَّب من تغريد حمامه".

الصَّفدي (١)

هو صلاح الدين خليل بن أبيك الصَّفدي، ولد بصَفد في فلسطين سنة ٦٩٦ وعُني في أول حياته بصناعة الرسم، ثم أتجه إلى علوم الشريعة والعربية، وتقل بين دمشق والقاهرة يأخذهما عن كبار العلماء، وأولع بالأدب. وكان أول ما ولى من الأعمال كتابة الدَّرج بموطنه صَفد، يكتب ما يوقَّع به كبار الكتاب في دواوينها لجودة خطه، ثم انتقل إلى القاهرة وشغل نفس العمل بدواوينها، ومضى يختلف إلى حلقات العلماء والأدباء بها، وتركها إلى دمشق، وكان رئيس الديوان بها حينئذ الشهاب محمود إذ نُقل إليها من القاهرة منذ سنة ٧١٧ وأعجب بالشباب الصفدي، وعيَّنه في كتاب الدُّسْتن حتى يعاونه

(١) انظر في الصفدي وترجمته النجوم الزاهرة ١٩/١١ والدرر الكامنة لابن حجر ١٧٦/٢ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٠٣/١٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٥/١٠ وما بعدها وشذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٠٠ والبرر الطالع ١/٢٤٣ وخزانة الأدب ص ١٧ وفي مواضع متفرقة من صبح الأعشي وخاصة ٨٦/١٢، ٣٥١.

في عمله وما يتصل به من إنشاء بعض الرسائل، وأنعدت صلة وثيقة بينه وبين ابن نباته، وتخرج على يديه شاعرا، كما تخرج على يدي الشهاب محمود كاتباً مجيداً. وتوفى الشهاب محمود سنة ٧٢٥ على نحو ما مرّ بنا في ترجمته، وظل الصفدي يعمل في دواوين الشام، وعين رئيساً لديوان الإنشاء بطلب وقتاً، وعاد إلى دمشق وإلى وظيفته بتعيين القادة وكبار الموظفين. وأضيفت إليه حينئذ وكالة بيت المال، واستمر في الوظيفتين إلى أن توفى بدمشق سنة ٧٦٤ وكان قد تصدى قبيل وفاته في الجامع الأموي للتدريس، وكان يحضر حلقة دروسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير.

ويقول صاحب النجوم الزاهرة: كان إماما بارعا كاتباً نظاماً ناثرا شاعرا، وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين. ويقف الحموي في خزانته مرارا ليذكر أن ابن نباته لاحظ كثرة سرقاته لمعاني شعره وأنه ألف كتابا في سرقاته منه سماه "خبز الشعير" يشير بذلك إلى أن عمله مذموم نفس مذمة خبز الشعير وأكله. وشعره في جملته متوسط وهو يكثر فيه من التورية، ومن طريق ماله قوله:

بَسْمُ أَحَاظِهِ رِمَانِي فُذُبْتُ مِنْ هَجْرِهِ وَبَيِّنِيْهِ
أَنْ مَتُّ مَالِي سِوَاهِ حَصْمٍ فَإِنَّهُ قَاتَلِي بَعِيْنِيْهِ

ويعد من أكبر لمصنفين في التراجم والأدب البديع والنقد، وعلى رأس مصنفاته في التراجم كتاب الوافي بالوفيات، وهو في نحو ثلاثين مجلدا، ونشرت طائفة من أجزاءه. واستخلص منه مع إضافات جديدة كتابه "أعوان النصر وأعيان العصر" من الأدباء والشعراء وهو في ستة مجلدات، وفي دار الكتب المصرية منه مجلدات متفرقة. وألف في مشاهير المكفوفين كتابه: نكت الهميان في نكت العميان، وهو منشور. وله التذكرة الصفدية وهي مختارات أدبية وكتاب تشنيف المستمع في انسكاب الدمع: دمع المحبين والعشاق، وله في المحسنات البديعية كتاب فض الختام عن التورية والاستخدام وكتاب جنان الجناس، وله في النقد نصرة الثائر (وهو ابن أبي الحديد) على المثال السائل لابن الأثير، والغيث المسجم في شرح لأمية العجم، وهو شرح ملئ بالملاحظات النقدية، وبه دفاع بديع عن أن سناء الملك إزاء ما أتهمه به خصومه من استخدام

بعض الألفاظ العامية، وشرح رسالة ابن زيدون الجديدة بشرح سماه "تمام المتون". وله وراء ذلك كتب أخرى سقطت من يد الزمن، كما أن له عض مقامات، ويقال إنه كتب وصنّف مئين المجلدات وخلف كثيرا من الرسائل بينها مجموع باسم ألحان السواجع في مجلدين سجل فيه الرسائل بينها مجموع اسم ألحان السواجع في مجلدين سجل فيه الرسائل المتبادلة بينه وبين أدباء عصره.

وكانت رسائل الصفدي الديوانية تشغل مجلدات كثيرة، ولم يحتفظ منها القلقشندي إلا برسائل قليلة، من ذلك توقيع لأمين الملك ومدبر شئون دمشق من أمن وضرب وأوقاف وغير أوقاف، وله يقول باسم صاحب الأمر:

"لما كانت دمشق في الدنيا أنموذج الجنة التي وعد بها المنقون، ومثال النعيم للذين عند ربهم يرزقون، وهي زهرة ملكنا ودرة سلطنا. تعين أن ننتدب لها من جربناه بعدا وقربا، وهزناه مثقفا^(١) وسلناه عضا^(٢) وخبناه في خزائن فكرنا فكان أشرف ما يُدخّر، وأعز ما يخبا، كم نهى في الأيام وأمر، وكم شد أزرًا لما وزر، وكم عنيت به أيامنا عن الشمس وليالينا عن القمر، وكم علا نُري رُتب تعرّ على الكواكب الثابتة فضلا عمن ينقل في المباشرات^(٣) من البشر، وكم كانت الأموال جمادي^(٤) فأعادها ربيعا غرد به طائر الإقبال وصفر. فليتلّق هذه الولاية بالعزم الذي نعهده، والحزم الذي شاهدناه ونشهده، والتدبير الذي يعترف الصواب له ولا يجحده، حتى يثمر الأموال في أوراق الحُساب، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج في البحار وتفوت القطر من السحاب".

وواضح ما في السجعة الأولى من اقتباس لبعض ألفاظ القرآن الكريم، ويلتمس الصفدي بعض صور الطباق والجناس ولكن دون إسراف، كما يلتمس بعض الاستعارات، ويبدو فيها غير قليل من التكلفة، كما يبدو التكلف أحيانا في اجتلاب

(١) مثقفا: سيفا مصقولا.

(٢) عضا: قاطعا.

(٣) المباشرات: الأعمال.

(٤) جمادي: ريد قليلة.

السجعات. ومن توقيعاته توقيع كتب به لكتاب السر بدمشق: ناصر الدين محمد بن يعقوب بالتدريس في المدرسة الناصرية الجوانية جاء فيه:

"إن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد^(١) بها تتبين فوارس الجلال في مضايق الجدال، وتتجلى بدور الكلام في مطالع الكمال، وتبدو شمس الجمال فيها لها من فسيح المجال، والمدرسة الناصرية- أثناب الله تعالى واقفها- هي الوسطة في عقودها. والدرة الثمينة بلا كُفء لها بين قيم نقودها، قد تدبج فيها الباء وتأرج عليها^(٢) الثناء، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد اعتناء... فلذلك رُسم بالأمر العالی أن يعاد إلى تدريسها لأن العود أمدح وأحمد، والرجوع إلى الحق أسعف وأسعد".

وواقع ما في التوقيع على هذا النحو من التصنع للجناس المقلوب في مثل "جلال وجدال" و"كلام وكمال" و"جمال ومجال" و"أمدح وأحمد" و"أسعف وأسعد" كل ذلك ليقع من نفس رئيس ديوان الإنشاء موقعا حسنا. ولم يكن الصفدى يتكلف دائماً مثل هذه الكلف في جناساته، بل هي تأتي عنده نادرة إذ كان سببه أن يأتي بالجناسات الطبيعية دون هذه المشقة في التكلفة. وكثير ن جوانب توقيعاته سلس سائغ. وكان محببا إلى أهل زمنه حسن المعاشرة جميل المودة.

ابن حجة^(٣) الحموى

هو تقوى الدين ابو بكر بن على بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموى، ولد بحماة سنة ٧٦٧ ونشأ بها، ودرس على شيوخها وأساتذتها، وأخذ عنهم فنون من العلم والأدب، وأرتحل إلى مشق والقاهرة يتزود من قات علمائهما وأدبائهم. وأنعقدت صلات كثيرة بينه وبين القاهرة، ويبدو أن عمل في دواوين حماة ثم دمشق حين كان يتولى ابن البارزى مواطنه كتابة السر بهما، وكانت قد توثقت علاقة ابن البارزى بالمؤيد شيخ حين

(١) الطارق والتالد: الحادث والقديم.

(٢) تأرج عليها: عطرها.

(٣) انظر في ابن حجة وترجمته وشعره ونثره كتابه خزانة الأدب في مواضع كثيرة، والبدر الطالع للشوكاني ١٦٤/١ والضوء اللامع للسحاوى ٢٧٧/٦ والروض العاطر للنعمان ٢٨٩/٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٩/٧ والنجوم الزاهرة ١٨٩/١٥.

أصبح نائباً لسلطان مصر بدمشق، فلما استدعى إلى مصر لتولى السلطنة أصطحبه معه وأخذ كاتبة سره كما مر بنا، وأصطحب ابن البارزي معه ابن حجة وولاه كتابة الإنشاء بالقاهرة سنة ٨١٥ فبلغ ذروة مجده الأدبي، وظل قائماً على هذا العمل طوال حياة ابن البارزي وحكم المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ) وظل كاتباً للإنشاء بعده عاماً وأشهرًا وشهد حينذاك تحول السلطة من الملك المظفر ابن المؤيد إلى الملك الظاهر ططر فابنه الملك الصالح وتولى السلطان برسباي سنة ٨٢٥ وتوقف أمره، فعاد سريعاً إلى موطنه حماة، وظل بها مكباً على التصنيف والتأليف حتى توفي سنة ٨٣٧هـ.

واشتهر بقصيدته: البديعية في المديح النبوي وما حمل أبياتها من محسنات البديع لزمه، وهى في مائة واثنين وأربعين بيتاً وكل بيت يحمل محسناً من تلك المحسنات. وشرحها شرحاً مطولاً، متوسعا في سرد الشواهد الشعرية والنثرية الكتابية مع ما لا يكاد يحصى من ملاحظات على استخدام الشعراء للمحسنات البديعية، بحيث أصبح الشرح- كما سماه- خزانة أدب. وتعد مرجعاً أساسياً للشعر والشعراء في زمن الأيوبيين والمماليك حتى أيامه. وله في الديع كتاب كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام. وله كتاب أدب طريف سماه "ثمرات الأوراق" طبع مرارا يعرض فيه مختارات نثرية وشعرية وكثيراً من المحاضرات والمساجلات، مع الإمام ببعض القواعد المهمة التي ينبغي أن تراعى في الكتابة الديوانية، ومع الإمام أيضاً ببعض رسائل القاضى الفاضل وابن نباته وأيضاً ببعض رسائله. والكتاب في مجموعة أشبه بكتب المحاضرات وال نوادر. واختصر بعض الأعمال، من ذلك اختصاره للصادح والباغم لابن الهبارية بإشارة من ابن البارزي سنة ٨١٣ كما ذكر في الخزانة باب إرسال المثل، وسمى مختصرة تغريد الصادح وصدّره من نظمه بأبيات تقوم مقام الديباجة. وله كتا متعددة مذكورة في كتا ابدر الطالع سقطت من يد الزمن. وله مقامة سنعرض لها في غير هذا الموضع، وكان شاعراً، كما كان كاتباً، وأنشد في الخزانة كثيراً من شعره، ويقول الشوكاني: "قد يأتى في نظمه بما هو حسن وبما هو في غاية الركة والتكلف.. ونثره أحسن من نظمه". وفي الخزانة رسائل كثيرة له، وخاصة في أبواب براعة الاستهلال والسجع وحسن الختام. وفي "ثمرات الأوراق" كما أسلفنا- بعض رسائله، وجميع ما أنشأه أولاً الشام ثم ما أنشأه في عهد المؤيد ثم في عهد الملوك المظفر والظاهر ططر والصالح في كتاب سماه

"قهوة الإنشاء" في مجلدين، ومنه مخطوطة في دار الكتب المصرية، وفي الدار أيضا كتاب له محفوظ باسم تأهيل الغريب يشتمل على كثير من رسائله ومكاتباته مع الأدياء، ونقتطف قطعة من بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة ٨١٩ عن الملك المؤيد شيخ:

"وُئِدَى لَعَلْمِهِ الْكَرِيمِ ظَهَرَ آيَةُ النَّيْلِ الَّذِي عَامَلْنَا اللَّهَ فِيهِ بِالْحُسْنَى وَزِيَادَةَ، أَجْرَاهُ لَنَا فِي طَرَقِ الْوَفَاءِ عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ.. دَقَّ قَفَا السُّودَانَ فَالرَّايَةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ كُلِّ قَلْعٍ (١) عَلَيْهِ، وَقَبَّلَ ثَغُورَ الْإِسْلَامِ وَأَرْشَفَهَا رَيْقَهُ الْحَلْوِ فَمَالَتْ غَصُونُهَا إِلَيْهِ. وَحَضَّنَ مَشْتَهَى الرُّوضَةِ فِي صَدْرِهِ وَحَنَّا عَلَيْهَا حَنُّو الْمَرْضَعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ:

وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظِمًا زُلَالًا أَلَذَّ مِنَ الْمَدَامَةِ لِلنَّدِيمِ

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بخلو النبات، وأدخلته إلى جنات النخيل والأعناب فالق النَّوى والحبّ، فأرضع في أحشاء الأرض جنين النبات وأحياء له أمهات العصف والأبّ.. ونسى الزهر بحلاوة لقاءه مرارة النَّوى، وهامت به مخدرات (٢) الأشجار فأرخت صفائر فروعها عليه من شدة الهوى.. ودارت دوائره على وجنات الدهر عاطفة، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى وأطربت كالخائفة".

والسجع فيه عذوبة ودلالة واضحة على طواعيه قوافيه لانحجة، وأنه كان كاتباً مجيداً أن لم يكن

بارعاً، وأطال السجعات ليحمّلها ما يريد من التوريات، وهي كثيرة فياقتطعة، وما نمضى فيها حتى

يذكر مديد النيل أو امتداده والمديد من بحور الشعر، يستغل ذلك في التورية بكلمة الأبيات فلا

يريد أبيات الشعر إنما يريد الدور والمسكن. واختار أمهات العف، وهو ورق الشجر والزرع مما

تأكله الأنعام ليجلب كلمة الأب مورّياً بها فهو لا يريد الأب الحقيقي كما يظن من ذكر الأمهات،

(١) يريد قلع السفن وشراعتها.

(٢) المخدرات: النساء يلزمن بيوتهن احتجاجاً عن الرجال. والاستعارة واضحة.

وإنما يريد الأب بمعنى العشب أخذاً من قوله تعالى: (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) واختار مع

حلاوة اللقاء مارة النوى، وهو لا يريد نوى التمر الحقيقي وإنما يريد النوى بمعنى البعد لأن وفاء

النيل وفيضانه يكون من عام إلى عام، وبالمثل يمكن أن يكون في كلمة الهوى توريه لأن لها

معنيين: العشق واريح، وأيضاً في كلمة الجوارى توريه إذ لا يريد الجوارى الحقيقيات مع ما

يوشح لها من ذكر الخصور وإنما يريد السفن الجارية. وكان تعيين كبار موظفي الدولة من

وزراء وقضاة وغير قضاة يصحبه تقليد بتعيينهم في شكل رسالة مطولة يكتبها منشي الديوان،

ولابن حجة تقليد طويل كتبه لجلال الدين البلقيني الشافعي بقضاء القضاة وفيه يقول مصورا

علمه:

"هو أبو العلماء الذي ولد من الأم أفراحهم، وأبو المهمات الذي شهّر من العُدّة الكاملة في ميدان الفرسان سلاحهم، وإليه انتهت الغاية فإنه ما برح يأتينا في وجيز تقريبه بالعجاب، ويغنيننا عن موضح القشيري فإنه يغذينا في إبانته باللباب.. وقد وقع النمويه في الفروق بينه وبين الغير عند أهل التبصرة والهداية، وهو نهاية المطلب وعيون المسائل وتاج رعوسها والمذهب الذي تهذبه في أدب القاضي كفاية، وهو البحر الذي ما دخلنا بسيطه المبسوط إلا قالت التورية إنه في البسيط كامل، ولا نظرنا إلى حليته الجالية إلا غنينا عن المصباح بنوره الشامل".

والقطعة مليئة بتوريات عن أمهات الفقه الشافعي، وقد بدأها في السجعة الأولى بذكر كتاب لأم للإمام الشافعي، وتلاه بالإشارة إلى كتاب الغاية في اختصار النهاية للعز بن عبد السلام، والنهاية هي نهاية المطلب في دراسة المذهب لإمام الحرمين الجويني، وأشار معه في نفس السجعة إلى وجيز الإمام الغزالي وتقريب القفال الشاشي، ثم ذكر اللباب وهو اللباب وهو لباب الألباب للآمدى في أشار إلى التبصرة لأبى

إسحاق الشيرازى ونهاية المطلب المذكورة آنفا المذهب لأبي شامة المقدسى والتهذيب للغبوي وأدب القاضى للماوردى والبسيط للغزالي والشامل لإمام الحرمين الجوينى. وقد بلغ ابن حجة من دقة الصنعة أن من يقرأ الإشارة إلى هذه الكتب وغيرها مما جاء في التقليد لا ينتبه إليها إلا بعد رويّة وتأمل فيما ابتغاه عنها من توريات.

الرسائل الشخصية

مرّ بنا أن الشام هي التي وضعت التقاليد الأولى للكتابة الديوانية بحكم اتخاذ الأمويين دمشق حاضرة للدولة الإسلامية الضخمة الممتدة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس، وتهياً لها حينئذ من كبار الكتاب من لا تزال أسماؤهم تتردد على الألسنة مثل سالم مولى هشام، وعبد الحميد الكاتب وله رسائل شخصية بديعة^(١) تتداولها كتب الأدب تتميز بأسلوب الجزل الناع مع السلاسة والعذوبة وما ما عُرف به من إحكام الترادف حتى يروع الأذان كما يروع الأذهان. ومن البلغاء الذين اشتهروا بروعة كتاباتهم في القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث العتّابي كلثوم بن عمرو، وله بدره- رسائل شخصية^(٢) تموج بالتصاوير ودقائق الأفكار مع حسن التعبير وجمال الصياغة. وكان السجع منذ القرن الرابع أخذ يشيع في الرسائل الديوانية، فشاع في الرسائل الشخصية لسبب طبيعي هو أن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، وقد أصبح السجع دينهم ولغتهم في كتاباتهم فعمموه في رسائلهم الشخصية. ولعل كتابا في بلاط سيف الدولة الحمداني لم يشتهر بالكتابة كما اشتهر أبو الفرج عبد^(٣) الواحد بن نصر المعروف بلقبه "الببغاء" المتوفى سنة ٣٩٨ للهجرة وكان شاعرا مبدعا وكاتبا بارعا، وفي كتاباته يقول الثعالبي "نثره مستوف أقسام العذوبة وشروط الحلاوة والسهولة" ويتضح ذلك فيما روى الثعالبي من رسائله كقوله مثنياً، مطرباً.

"شهابُ ذكاء، وطُودُ وفاء، وكعبة فضل، وغمامة بذلك، وحُسام ح، ولسان صدق، فالليالي بأفعاله مشرقة، والأقدار لخوفه مطرقة، تحمده أولياؤه، وتشهد له بالفضل

(١) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت (طع ونشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي) ٤٣٤/٢ وفي مواضع منفردة.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٤٧٤/٣ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته وراسته في اليتيمية ٢٣٦/١ وما بعدها، وراجع ترجمته في تاريخ بغداد ١١/١١ والمنتظم ٢٤١/٧ وعبر الذهبي ٦٨/٣ وابن خلكان ١٩٩/٣.

أعداؤه". وقوله: "من كان جميل رأى سيدنا عُدَّتْه، أمن من الدهر شدته، ومن فزِعَ إلى إحسانه، استظهر على زمانه، ومن توجه برغبته إليه، لم تقدم الأيام عليه".

(أ) رسائل أبي العلاء

لأبي العلاء رسائل أدبية مشهورة مثل رسالة الغفران ورسالة الملائكة، وله بجانب ذلك رسائل شخصية كثيرة، عُنيت بطبعها المطبعة الأدبية ببيروت لأواخر القرن الماضي سنة ١٨٩٤ وطبعها مرجليوث في أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات، وحققها الدكتور عبد الكريم خليفة ونشرها بعمان في الأردن سنة ١٩٧٦ وقد بلغت عنده ٤٢ رسالة. وأولها رسالة المنيح وهو القذح الثامن من قِدادح الميسر التي ليس لها نصيب في القمار، وكأنه كنى به عن نفسه في تلك الرسالة التي وجّه بها إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ردًّا على رسالة أرسل بها أبو القاسم إليه ونراه يستهل رسالته بقوله:

"أن كان لآداب - أطال الله بقاء سيدنا - نسيم يتضوَع^(١)، وللذكاء نار تشرق وتلمع، فقد فَعَمْنَا^(٢) على بُعْد الدار أَرَجُ^(٣) أدبه، ومحا الليل عنا نكاؤه بتلهُّبه، وخَوَّل^(٤) الأسماع شُنُوفًا^(٥) غير ذاهبة، وأطلع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغارية، وذلك أنا - معشر أهل هذه البلدة - وه لنا شرف عَظِيم، وألقي إلينا كتبا كريم، صدر عن حضرة السيد الحَبْر^(٦)، ومالك أعنة النظم والنثر، قراءته نُسْك، وختامه بل سائرهِ مِسْك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. جَلَّ^(٧) عن التقبيل فظلاله المقبلة، ونزه أن يبتذل فنسخة المبتذلة، وإنه عندنا لكتا عزيز. ولولا الإلاحة^(٨)، على ما ضمن من الملاحاة، والخشيئة على دُجَى مداده من التوزع، ونهار معانيه من التشتت والنقطع، لعكفت عليه

(١) يتضوع: يفرح.

(٢) فعمنا: ملأ أنوفنا.

(٣) أرج: شدى.

(٤) خول: أعطى.

(٥) شنوفا: أقرطا.

(٦) الحبر: العالم.

(٧) جل: تنزه.

(٨) الإلاحة: الإشفاق.

ألفواة بالأنثم، والموارن^(١) بالإنشاء^(٢) والشتم، حتى تصير سطورة لمى^(٣) في الشفاه، وخیلانا على مواضع السجود من الحیاة، ولولا ما حظره الدن من القمار لضربنا علیه بالسبعة الفائزة، والثلاثة التي ليست لحظ بالحائزة.. فیا شرفه من صك بالفخر، یبجح به على النظرء حیرى^(٤) الدهر، موشحاً بكل شدرة أعذب من سلاف العنقود، وأحسن من الدینار المنود، فجااء كلوائح البرو، أویوح^(٥) عند الشروق".

وإذا مضینا بعد ذلك فی قراءة رسالة المنیح- وهی طویلة- أخذت أمواج الألفاظ الغریبة تتولی، حتى لیصعب على أى عالم لغوى أن یمضى فیها دون أن یعود إلى المعاجم یستین منها ما یقرأ لا من حین إلى خر، بل مع كل سجة، بل مع غیر لفظ فی كل سجة، وكأنما كان یطلبه طلبا فی سجاته. أو كأنما كان یعده زینة ینبغی أن لا تخلو منه سجة. وهو لذلك یملاً الرسالة بالألفاظ الغریبة المبعدة فی الإغراب مما قرأه فی الشعر القدیم وفی كتب اللغة، ولا یهمه أن یکون الكلمة ما دُونَ فی المعاجم، بل لعله كان یطلب ذلك استکمالاً لغرابتها، ومن هنا تصیح قراءته صعبة إلى أقصى حدود الصعوبة. ولم یکن یکتفی بذلك فی بعض رسائله، فقد كان یضیف صعوبة ثانية هی حشد ألفاظ المصطلحات العلمیة وخاصة مصطلحات العلوم اللغویة على نحو ما تقرا فی رسالته المعروفة برسالة الإغریض وهو ما ینشق عنه الطلع من الحبیبات، والرسالة موجهة ایضاً إلى أبی القاسم المغربی وفیها یقول:

"حرس الله سیدنا حتى تُدغم الطاء فی الهاء، فتلك حراسة بغير إنتهاء.. وهما فی الجهر والهمس، بمنزلة غدٍ وأمس، وجعل الله رتبته التي هی كالفاعل والمبتداء، نظیر الفعل فی أنها لا تنخفض أبداً، فقد جعلنی أن حضرت عُرف شانى، وإن غبت لم یُجهل مکانی، کیا فی النداء، والمحذوف من الابتداء، إذا قلت زیدُ أقبلُ، والإیبلُ الإیبلُ، بعد ما كنت كهاء الوقف، أن القیتُ فبواجب، وإن ذُكرت فغیر لازب^(٦)، إنی وإن

(١) الموارن: الأنوف.

(٢) الإنشاء: شم الطیب ونحوه.

(٣) المى: سمرة حسنة فی الشقة.

(٤) یبجح: یفخر. حیرى الدهر: أبد الدهر.

(٥) یوح: اسم الشمس.

(٦) لازب: لازم.

غدوتُ في زمن كثير الددِ (١) كهاء العدد، لزمّت المذكر فأنتت بالمنكر، مع إلفٍ يرانى في الأصل كألف الوصل، وتكون تارة حرف لين، وتارة، وتارة مثل الصامت (٢) الرصين، فهي لا تثبت على طريقة، ولا تدرك لها صورة في الحقيقة".

وهون يدعو لأبى القاسم أن تظ تحرسه عاية الله إلى أبد الأبدين أو كما يقول إلى أن تدغم الطاء في الهاء وهي لا تدغم فيها أبدا، إذ الطاء حرف مجهور الصوت كما يقول- والهاء حرف مهموس لا يكاد وته يبين، فهما من طبيعتين مختلفتين وكذلك لا يدغمان أبدا ولا يتحدان كالأمس والغد. ويدعو أبو العلاء له أن تصبح رتبته أرفع الرتب في الدولة، كرتبة الفاعل والمبتدأ في النحو، إذ هما بسبب رفعهما في أعلى الرتب. ويدعو له أن لا يلحقه خفض في رتبته كالفاعل لا يلحقه خفض ولا جرُّ أبدا. ويقول أن أبا القاسم جعله معروفا رفيع الشأن حضر أو غاب مثل ياء النداء فمكانها محفوظ ذكرت مع المنادى أو لم تذكر، ومثلها المبتدأ ذكر أو حذف فمكانه محفوظ، فتقول: محمد أي يا محمد، وتقول كتاب الأدب أي هذا الكتاب الأدب. ويقول إنه كان بل أن يضعه أبو القاسم في منزلته الرفيعة كالهاء التي تلحق ببعض الكلمات في الوقف، مثل: لِمَ تقول فيها لمه، فهي تطرح وتذكر دون أن يكون لها شأن في الكلمة. ويقول إنه كان يشعر بنبو مكانه على نحو ما يلاحظ في هاء العدد أو تائه من ثلاثة إلى عشرة، فإنها تلحق عددها من المذكر وتطرح مع المؤنث، وكان القياس في العربية العكس. ولا يكتفى بذلك فيقول إنه كان كألف الوصل مع أصحابه، نذكر حين الابتداء بالساكن وتسقط في درج اكلام. ويقول أن حالة كانت مثل الهمزة تبدل أحيانا عينا في لغة تميم، فيقولون في أن عَن، وقد تنطق بين الهمزة المحققة وأختها المسهلة أو كما يقول "بين بين" وقد تسهّل تماما فتصبح حرف لين مثل ال في سأل، وقد تحقق وخاصة في أول الكلمات فلا تسهّل مثل أمر، فهي كما يقول ابن العلاء لا تثبت في العربية لى طريقة.

وأبو العلاء بذلك يصعب نصره على قارئه، بحيث لا يستطيع قراءته وفهمه إلا العالم اللغوى لكثرة الألفاظ الغريبة فيه، وليس ذلك فحسب، فإن هذه القطعة في الرسالة

(١) الدد: اللهو واللعب.

(٢) الحروف المحققة مما سوى حروف اللين والمد.

لا يستطيع أن يفهمها إلا من عرف مصطلحات علمي النحو والصرف، وقد مضى في الرسالة يستظهر مصطلحات علم التجويد والقراءات وعلم العروض وتلحين الموسيقى ومصطلحات علم الفلك مع معارف كثيرة عن الخيل والحيوان. وله مناظرة طويلة بين الصاهل والشاحج أو بين الفرس والبغل، وهو كتاب نفيس نشرته بنت الشاطي بدار المعارف. وتتكاثر في الرسالة العارف عن المرأة وجليلها ولا باس من إبداعها شيئاً من التاريخ. وكل ذلك يصعبها: سجع وأوابد لفظة وأوابد أو مصطلحات علمية ومعارف شتى. وكأنما استأثرت بالشرط الأكبر من هذا كله الرسالة الإغريقية. وتقل المصطلحات العلمية في بقية رسائله غير أنه لا يزال يستظهرها فيها من حين إلى حين، ومرجع ذلك إلى أنه كان يكتب برسائله إلى علماء في عصره، فكان يسوق إليهم هذه المصطلحات تصويراً لمهارته البيانية. وتحفل الرسائل بنقد خلقي واجتماعي وسياسي وأدبي، وأكثرها في الثناء على من يكتب إليهم، وبينها رسائل شافعة وتهنئة وتعزية وشوق، وتكتظ بسجعات بديعة كقوله في فواتح رسالة كتب بها من بغداد إلى خاله أبي طاهر المشرف بن سبيكة الحلبي:

"شوقى إلى سيدى الشيخ شوق البلاد الممحلة، إلى السحابة المسحلة (١)، وانتفاعى بقربه انتفاع الأرض الأريضة، بالأمواء الغريضة (٢)، وتشوفى لأخباره تشوف راعى أنعام (٣) أجذب في عام بعد عام، لبارق (٤)، هؤلُهُ مرتقب ممان (٥). وأسفى لفقده أسف وحشِيَّة (٦)، رادت (٧) بالعشية، فخالفها السرحان إلى طلا (٨) راد فحار (٩) فهى تطوف حول أميل (١٠)، وترى صبرها ليس بجميل. وتذكرى لأوقاته تذكر الفطيم ثدى

(١) المسحلة: الممطرة.

(٢) الأريضة: الطيبة. الغريضة: المبكرة.

(٣) الأنعام: الأبل.

(٤) البارق: السحاب يلمع فيه البرق، وجعله يميناً حتى لا يخلف مطره.

(٥) ممان: متطاول

(٦) يريد بقرة وحشية.

(٧) رادت: ذهبت تطلب الكأ.

(٨) الطلا: ولد البقر. السرحان: الذئب.

(٩) حارها: تحير.

(١٠) أميل: كتيب عالز

الوالدة، والمقسم بالملح لبني خالدة انتظاري لقدمه انتظار تاجر مكة وفدًا (١) الأعاجم، وربّ الماشية ظهورَ النَّبْتِ الناجم (٢)"

ويدون ريب تُعدُّ رسائل أبي العلاء الشخصية في الذروة من البلاغة، وهو دائماً يُعنى فيها بالسجع إلى قليل، وقد يلتزم فيه ما لا يلزم كما في هذه القطعة، فإن السجعتين فيما تتفقان لا في الحرف الأخير فحسب المقابل للروى في الشعر، بل في حرفين أو ثلاثة حروف، ودائماً نلتقى في رسائله بالألفاظ الأبدية الممعنة في الغرابة وإن لم تمعن فيها بهذه القطعة. وهو يستغل في سجعته معارفه الكثير التاريخية وغير التاريخية على نحو ما يلقانا في هذه القطعة من إشارته إلى أن العرب كانوا يعتقدون ويتعاقدون على الملح، وذكر عهداً لهم أقسموا فيه بالملح لبني خالدة وهى خالدة بنت أرقم أم كردم وكريدم ابني شعبة الفزاريين. والجناس الناقص مثل: "المحلة والمسحلة" واضح في القطعة، وكان يوشى سجعته به وبغيره من محسنات ابديع وخاصة الطباق والتساوير.

(ب) رسائل متنوعة

طبيعي أن تكرر الكتابات الشخصية على السنة الأدباء شاكرين صنيعا و مهنيين على منصب كبير أو معاتبين أو مثئين مادحين أو معتذرين أو مستعطفين أو معزين عن خطب ألم بأصدقائهم أو في فقد عزيز، وتارة يؤبنون وتارة بيكون وقد خنقتهم العبرات. وكثيرا ما كانوا يتراسلون، من ذلك مراسلات الطغرائي الشاعر الكاتب والغزى إبراهيم بن عثمان الذي مرت ترجمته بي الشعراء ويقول العماد الاصبهاني "كانت بينهما مكاتبات مفيدة وبينهما لنسب الفضل المودة الوكيدة" ويسوق العماد للغزى رسالة أعتذر كتب بها إلى صاحبه جاء فيها (٣):

(١) يريد: قدوم وفود الحجيج الأجانب.

(٢) الناجم: الذي لا ساق له.

(٣) الخريدة (قسم الشام) ٢٧/١.

لسان الحسود- أدام الله أيام المجلس السامى دام ساميا، ولبيضة المجد حاميا- إذا
 علق بعرض الكرام كان كالنار في المندى^(١)، يبروح بسرّ طيّبه الخفى.. فإن وقع من
 السفهاء إفك فداعيته ما ظهر لهم من إنتمائيه، وانتساب مُرنته إلى سمائه".

وانتخاب الغزي لألفاظه واضح، فهو يجيد الكتابة كما يجيد الشعر، وهوي عنى
 فيها بالتصاوير، وكان خصب الخيال، ومرت بنا في ترجمته روائع طريفة من أشعاره.
 وكان ابن منير الطرابلسى الذي ترجمنا له بين الشعراء نزح عن دمشق إلى قلعة شيزر
 في الشمال خوفا من ابن الصوفى وزير حاكمها أبى، وحاول صديق له هو زين الدين
 بن حليم أن يسترجعه إلى دمشق نكتب إليه يستدعيه، وأجابه ابن منير برسالة طويلة
 معذرة يقول فيها (٢):

"أن جراحى إلى الآن لم تذق حلاوة الاندمال، وفروحها تزداد قرحا مع الحلّ
 والترحال، وبين جوانحى من الأين^(٣)، لما لقيت بدمشق من العبن، مالا يحلّه إلا عَفْدُ
 الكفن، ولا يرفع حدّته إلا التيمم بصعيد^(٤) المدفن. وبلقاك فلان وفلان من كل ذى
 خَلْق دَمِيم^(٥)، وخلق نعيم، وأصل لنعيم، ورفع زَنِيم^(٦)، ووجه لَطِيم، وقفاً كلّيم^(٧)،
 وهلم جرّا من عذاب أليم، وصراط في الود غير مستقيم".

ولغة ابن منير لغة أدبية بديعة، وكا كان شاعرا بارعا كان كاتباً بارعا، تواتيه
 الكلمة وتنزل في مواقعها ومستقرها من السجع الرائع الذي لا تطول عباراته، فإذا
 الكلمات وكأنها تتلاقى وتتعانق لجمالها في الجرس وحسن الأداء. ويورد العماد في
 الخريدة مراسلة بين القاضى الفاضل وزير صلاح الدين وكتابه وبين أسامه بن منقذ،

(١) المندى: عود الطيب.

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٩٢/١.

(٣) الأين: العناء.

(٤) الصعيد التراب.

(٥) دميم: قبيح. دميم: مضموم.

(٦) زعيم: دعى

(٧) كلّيم: جريح.

ويذكر أولاً كتا القاضى الفاضل ثم يذكر جواب أسامة، وله يقول من رسالة طويلة ما دحا مثنيا على بلاغته، متحدثا عنه بضمير الغيبة (١):

"ما عسى أن يقول مطرية وما دثحه والفضل نُغبة من بحر الزاخر، وقطرة من سحابه الماطر، تفرد به فما له فيه من نظير ن وسبق من تقدمه في زمانه الأخير، فتق عن البلاغة أكمامًا تزينت الدنيا منها بالأعاجيب، وأتى بآيات فصاحة كادت أن تُتلى في المحاريب، إذا استنطقت أزدحمت عليها العقول والأسماع، ووقع على الإقرار بإعجازها الاتفاق والإجماع.. هو سحر لكنه حلال، وُدُرَّ إلا ن بحر حلو سلسال".

ونمضي إلى أيام المماليك ويلقانا الشهاب محمود رئيس ديوان إنشائهم في دمشق والقاهرة وقد ترجمنا له ين شعراء المديح، وله - كما أسلفنا - كتاب في رسوم الكتابة الديوانية، وبه كثير من رسائله الرسمية، وبعض رسائله الشخصية أو الإخوانية، ماه "حسن التوسل إلى صناعة الرتل" وله بجانب كتاب ثان سقط من يد الزمن سماه "زهرة الربيع في التوسل البديع" وعنه يقل كثيرا القلقشندى في الجزء التاسع من صبحه، ومما نقله عنه رسالة في التهنة بعيد الأضحى جاء بها (٢):

"جعلله الله أبرك العياد وأسعدها وأيمن الأيام وأمجدها، وأجمل الأوقات وألذها وأرغدها ولا برح مسرورا مستبشرا، منصوراً على الأعداء مقتدرا، مسعودا محمودا، معانا بملائكة السماء معبوداً، ومهنا بالسعود الجديدة والجدود السعيدة، والقوة والناصر، والعمر الطويل الوافر ألبسه الله من السعادة اجمل حلة، ومنحه من المكارم أحسن خلة".

وكان الشهاب محمود يعني بتزيين سجعته بمحسنات البديع وألوانه الزاهية من جناس وغير جناس، وكان يشغف شغفا شديدا بصور الجناس المعكوس كما نرى في قوله: "مهناً بالسعود الجديدة والجدود السعيدة".

(١) الخريدة (قسم الشام) ٥٤١/١.

(٢) صبح الأعشى ٤٦/٩.

ونلتقى بعمر بن الوردى وكان شاعرا وأديبا كاتباً، وله تعزية بوفاة الفقيه الشافى شرف الدين البارزى المتوفى سنة ٧٣٨، وفيها يقول (١):

"بلغنى أنهدأ الطود الشامخ، وزوال الجبل الراسخ، الذي بكته السماء والأرض، وقابلت فيه المكروه بالندب وذلك فرض، فشَرِقْتُ (٢) أجافن المملوك بالدموع، وأُخِرَق قلبه بين الضلوع، فالعلوم تكيهه، والمحاسن تعزى فيه، والأقلام تمشى على الرعوس لفقده، والمصنفات تلبس حداد المداد من بعده.. ولا خاصاً إلا حزن قلبه، ولعاماً إلا طار لُبُّه".

وكان يجنح في نثره وشعره إلى استخدام المصطلحات العلمية، وقد تصنع في هذه القطعة القصيرة لحشد المصطلحات الفقهية: المكروه والندب والفرض، وأيضاً فإنه كان يعنى يجلب صور مختلفة من التوريات، وواضح أنه ورى هنا بالمصطلح الفقهى: الندب عن معناه الحقيقى وهو بكاء المتوفى وتعداد محاسبه. وجعل الأقلام تمشى على رعوسها حزناً وهى فعلاً تمشى على رعوسها أو بعبارة أخرى تكتب برعوسها، فاستغل ذلك في تعزيتة.

ولابن حجة الحموى رسالة يصف فيها سكيناً أهداها إليه بعض أصدقائه جاء فيها قوله (٣):

"الملوك يُنْهَى وصول السكين التي قطع بها أوصال الجفا، وأضافها إلى الأدوية فحصل بها البُرُ ولاشفا، وتالله ما غابت إلا وصلت الأقلام ن تقشيرها إلى الحفا.. ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب (٤)، وذلك بعد أن خضعت له الرعوس والرقاب.. أنملة صبح تقمعت بسواد الدجى، فعوذتها ب (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى).. تَطَّرَف بأشعتها الباهرة عين شمس، وبإقامتها الحدَّ حافظت الأقلام على مواظبة الخمس".

(١) انظر ديوان عمر بن الوردى، طبع الجوائب في مجموعة سنة ١٣٠٠ هـ ص ١٦٣.

(٢) شرقت: غصنت.

(٣) خاتمة الأدب للحموى ص ٢٥، ٥٢٧.

(٤) نصاب السكين: مقبضها.

والتكلف واضح في القطعة، فقد ذكر الجفا أى البعد، وفكر في سجة معه فجاء بالشفاء والحفا وأصله رقة الخف ويريد المبالغة في تذيب الألقام، وكل ذلك تكلف، ولم يلبث أن جنح إلى التورية بموسى الرسول لما ذكر معه من السجود والمحراب عن موسى الحلاق. وكان نصاف السكين أسود فحاول أن يستغل ذلك ليقتبس فاتحة سورة الضحى، وعاد إلى التورية بإقامة الحد على الجناة وهو يريد إقامة حد السكين وورى أيضا بمواظبة الخمس إذ لا يريد امعن التبادر من مواظبة الصلوات الخمس، إنما يريد مواظبة الأصابع الخمس على الكتابة بتلك الأقلام.

ونمضى إلى أيام العثمانيين ونظّل نقرأ رسائل شخصية متعددة في تراجم الأدباء، من ذلك قول مرعى الكرمى المتوفى سنة ١٠٣٣ للهجرة في معاتبته^(١):

"الصديقُ لفظ على الألسنة موجود، ومعناه في الحقيقة مفقود، فهو كالكبريت الأحمر، يذکر ولا يُبصر، أو كالعنقاء والغول لفظ يوجد بلا مدلول. وهذه شيم غالب أبناء الزمان، من الأخلاء والإخوان، فمثلهم.. كلمع السراب، المستحيل فيه الشراب، أو كالخيال الذي يبدو في المنام، وهو في الحقيقة أضغاث أحلام".

ويسوق المحبى في نفحة الريحانة رسائل مخالفة لأبيه وجدّه، منها رسالة هزلية لأبيه كتب بها على لسان فرس إلى مفت بالقسطنطينية. وانعقدت صداقة وثيقة بين المحبى وبين عبد الغنى النابلسي الصوفى، وله يقول متردداً مثنياً مشيداً بنسكه وتصوفه وسلوكه الروحى^(٢):

"مولای الذي سار في بروج الفضل مسير الشمس، وقامت فضائله في جسم العالممقام الحواس الخمس، لازال في السكون والحركة، مرافق اليمين والبركة، يفرح به كل قطر ينزله، كأنه البدر والدنيا منازلها، ومن شايعه مسعوداً يومه وغده، وله من

(١) نفحة الريحانة للمحبى ٢٤٧/١.

(٢) نفحة الريحانة ١٣٩/٢.

العيش أهناه وأرغده.. أنا شعبة من دَوْحَتِكَ (١)، وغصن من سَرْحَتِكَ (٢)، بل نَبْتُ سَقْتِهِ
أياديك، وزهر تفتح بما أفاضته غواديك" (٣).

ويطبع نثر الرسائل الشخصية حينئذ بنفس الطوابع التي رأيناها في أيام الممالك،
فهو يعتمد دائما على السجع، يوشى بالبديع ومحسناته.

(١) الدوحة: الشجرة الكبيرة المتشعبة.

(٢) السرجة: الشجرة الطويلة العظيمة.

(٣) الغوادي: السحب.

المقامات

كان لبديع الزمان الهمذاني فضل السبق إلى استحداث فن المقامات في العربية، وقد بناه على أقاصيص تصور حياة أديب متسول لا يزال يحتال على سامعيه بعباراته المسجوعة الرشيقة كي يسبغوا عليه شيئاً من عطائهم يعينه على سدّ حاجته في الحياة. وجعل له رواية يتابعه ويقص حكاياته وأخباره من بلدة إلى أخرى. وتبعه الحريري فأوفى بهذا الفن على الغاية، سواء من حيث جمال القصّ فيه أو من حيث جمال الحوار بين الراوي والاديب المتسول أو بين الأديب وبين من يعرض عليهم أفانين بلاغته. وطبيعي أن لا تعرف الشام - مثل بقية البلدان العربية - المقامات قبل بديع الزمان، بل أيضاً قبل الحريري المتوفى سنة ٥١٦ للهجرة، ويبدو أنها ظلت طويلاً لا تعرفها أو على الأقل لا تحاول محاكاة الحريري وبديع المان فيها، وكأنما اشتغالها بالحروب الصليبية ثم المغوية حتى منتصف القرن السابع الهجري ألهاها عن هذا الفن، حتى إذا أخذت الأحوال السياسية تستقر فيها الأيام المماليك وجدناها تعنى به، وتلقانا نماذج متنوعة من هذه العناية منذ النصف الثاني من القرن السابع، وهي نماذج تختلف عن صورة المقامات عند بديع الزمان والحريري، وإذا لا عتمد مثلها على أديب متسول وقصّ احتيالاته الأدبية قصّاً حوارياً، إنما تعتمد على الوصف أو المناظرة بين بعض الأشخاص أو بين بعض الأزهار أو بعض الثمار، وقد تعنى بالوعظ أو بعرض بعض الصرخدى المدرس بالمدرسة النورية بدمشق المتوفى بعد سنة ٦٧٠ ومن ذلك أيضاً مقام في مصر والنيل والروضة لمحمد بن عبد الرحمن بن قرناص الحموي المتوفى حوالي ٦٧٢. وتلقانا مقامة للشاب الظريف محمد بن عفيف الدين التلمساني الذي ترجمنا له بين شعراء الغزل سماها مقامة أو مقامات العشاق، وفيها يصور شغفه باللهم

والتتزه في الرياض ولقاء فيها ذات مرة لعاشقين وكيف حاورهما حوارًا طريفًا، وهو يفتتحها على هذا النمط (١):

"لم أزل مذ بلغت سن التمييز، أتولّع بنظم الأراجيز، ومذ شبّ عمرى عن الطّوق، مُغرى بالغرام والتّوق، وأهيم بالشّمول (٢) والشّمائل، واشرب في زجاجة صفراء كالصائل، وأقدم على رشف ثغور البيض.. وأتتزه في كل ناد وواد.. فخرجت بعض الأيام إلى الغياض (٣)، وولجت (٤) بين حياض ورياض".

ويذكر صاحب فوات الوفيات للشهاب محمود الذي مرت ترجمته بين الشعراء مقامة تسمى مقامة (٥) العشاق، ولعله حاكى بها مقامة الشاب الظريف. ولعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ أكثر من مقامة. وسنخضه بترجمة قصيرة، وللصفيدي فيها حريق دمشق الذي أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرهما لسنة ٧٤٠ ومن قوله في تلك المقامة للمتعة (٦):

"سألت عن الخبر، ممكن غير، فقال أن الحريق وقع قريبا من الجامع، وأنظر إلى شبح الجو كيف انتشرت فيه عقائق (٧) اللهب اللامع، فبادرت لى صحنه والناس فيها قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك لانار كما يذوب الشحم، وريت النار وقد نشرت في حداد الظلام مُعصّفات (٨) ذوائبها، وصعدت إلى السماء عذبات ذوائبها.. وعلت في الجو كأنها أعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهى (تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ) ، فكم زمر أضخت لذلك الدخان جاثية، وكم نفس كانت في النازعات وهى تتلو (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ) ولم تزل تأكل ما يليها وتفنى ما يسلفها ويعتليها".

(١) انظر المقامة ملحقة بديوان التلعفري (طبع المطبعة الأدبية ببيروت).

(٢) الشمول: الخمر.

(٣) الغياض: أماكن الشجر الملتف.

(٤) ولج: دخل.

(٥) فوات الوفيات لابن شاكل ٥٦٥/٢.

(٦) الجزء الأول من مسالك الأبصار (طبع دار الكتب المصرية) ٢٠١/١.

(٧) عقائق: جمع عقيق وهو حجر كريم أحمر شبه به الصفيدي اللهب.

(٨) معصفات: مصبوغة بالعصفر، وهو صبغ أصف.

وواضح في سجعاته طلبه لجناس. فهو يجانب بين الخبر وغبر، والجامع واللامع، واللحم والشحم، ويمضى في مثل هذه الجناسات الناقصة، واشتهر لزمه بالتصنع الشديد للجناس. وجعلته عنايته بالجناس يستخدم كلمة نوابها مرة ن الذوبان جمعاً لذائب ومرة بمعنى مقدم الشعر في الرأس جمع نؤابة وجعله هذا المعنى يتصنع لذكر العذبات وهى أطراف العمائم التي تطرح عليها، وتكلف أشد التكلفة حين ذكر ملائكة النصر مع هذا الحريق الذي ابتليت به دمشق وأهلها بلاء عظيماً. وإنما اغراه به محاولته اقتباس الآية القرآنية (تَرْمِي بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ) وهى في وصف جهنم وما يتصاعد من شررها ووقودها كالقصر في ارتفاع بنائه وعلوه الشاهق. وقدى مضى يتصنع لذكر طائفة من أسماء السو، فذكر (الرمز) أى الجماعات و(الدخان) و(الجائية) من الجنو وهو الجلوس على الركب من شدة الهول، كما ذكر (النازعات) والآية الأولى من سورة (الغاشية) والغاشية القيامة.

وواضح أن المقامة أشبه برسالة اتخذت موضعاً لها وصف حريق دمشق، وأكثر المقامات حينئذ كانت على هذه الشاكلة ينقصها أقصّ والحوار، وكأنها تختص بموضوع أدبى تعالجه. وغلب عليها ذلك أيضاً في أيام العثمانيين وثلثى في نفحة الريحانة للمحبى بمقامة سميت بالمقامة الربيعية لعبد ارحمن بن محمد الدمشقى من بنى النقيب، وفيها تتوالى، وفيها تتوالى تشبيهات الزهور والطيور على هذا النحو. (١)

"تَرْجِسُ نَعْتَهُ الْفَتُورَ، وَوَرْدَ كَأَنَّمَا أُنْتَزَعُ مِنْ أَوْجِهِ الْخُورُ.

وَشَقِيقٌ كَأَنَّهُ أَقْدَاحُ الْعَقِيقِ (٢)، قَدْ رَسَبَ بِقَرَارَتِهَا مِسْكًَ فَتَيْقُ

وَآذْرِيُونَ (٣) كَأَنَّهُ مَدَاهِنُ عَسْجِدٍ، عَلَى سِوَاعِدِ زَبْرَجْدٍ

وَسُوسِنُ كَبِيَاضِ السُّوَالِفِ، أَوْ جِيَادِ (٤) الْوَصَائِفِ

وَقَرْنُفُلٌ كَأَنَّمَا تَوَقَّدُ بِالْجَمْرِ، وَأَنْعَقْدُ مِنَ الْخَمْرِ"

(١) نفع الريحانة ٣٥/٢.

(٢) العقيق: حجر كريم أمر. فتيق: فائح.

(٣) الأذريون: زهر شديد الصفرة. والعسجد: الذهب.

(٤) جاد هنا: جمع جيد أى عنق.

ويظل طويلا في وصف الأزهار، ويخرج منها إلى وصف الأطيوار، بمثل هذه الأسجاع المليئة بالتشبيهات والاستعارات.

وروى المحبي لعبد الغنى النابلسي الصوفى الذي مرت ترجمته مقامة وصف فيها نزهة مع صديق عثرا فيها عن قصر علالى البنيان فدخلاه، يقول (١):

"فصعدنا إلى قصر مشيد (٢)، مزخرفة الجوانب بألوان الأطلية وأنواع الشيد (٣)، وفيه الغرف الرفيعة ذات التزيين، والمقاصر المصنوعة لقاصرات (٤) الطرف عين. قد طلّت شبابيكه على تلك الأرجاء الموقفة، والجداول المتدفقة، وأرضه مفروضة بأفرخ الوشى والديباج، وقد أطلق فيه مباخر الطب فزاد في الأبتهاج. فحلت أنا وصاحبي على تلك لأرائك الممنوعة (٥)، والرش المرفوعة، نتناشد الأشعار، ومنتشبت بأذيال ألافكار".

ويلقاه هو وصاحبه رفيق، فيسأله اين كنت؟ ومن أين توجهت؟ وما يلبث أن يقول له: وما ذلك القصر الموصوف سوى جُبتى هذه وثوبى هذا الصوف، والشبابيك جيويه وأطواقه، ولا عجب أن نَفَحْت فيه مباخر لطيب فإنها قراطيسه وأوراقه.. وكأن كل ما في المقام رموز صوفية جلاها عبد الغنى النابلسي في تصاوير الرياض والقصر وتهاويله. وحري بنا أن نقف قليلا عند ابن الوردى أهم كتّاب المقامة الشاميين.

ابن (٦) الوردى

هو زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردى، ولد في المعنة بلدة أبي العلاء سنة ٦٨٩ وبها نشأ ودرس على شيوخها، ويقول ابن حجر في الدرر: بل نشأ بجلب وهو حاضرة إقليم المعرة، وخاصة على قاضيها وقبيها ومفتيها الشافعي شرف الدين البارزى. وتنقل في بلاد الشام يأخذ عن شيوخها، وعرف فضله في الفقه والفتوى،

(١) نفحة الريحانة ١٥٢/٢ وما بعدها.

(٢) نفحة الريحانة ١٥٢/٢ وما بعدها.

(٣) مشيد: عال مرتفع.

(٤) الشيد: كل ما طلى به البناء من جص وغيره.

(٥) قاصرت الطرف: خجلات حبيبات. وعين: جميلات واسعات الأعين.

(٦) الديوان (في مجموعة طبعة الجوانب) ص ١٣٣.

فولاه ابن الزمكاني قاضى قضاة الشام قضاء حلب، وكان شاعرا. وله في ابن الزمكاني مدائح كثيرة، واعترافا منه بصنيعة. ورأى ابن الزمكاني فيما بعد عزله عن حب وتوليته قضاء منبج، فامتعض ابن الوردى لنفسه أن يعزل عن حلب ويولى قضاء بلدة صغيرة من بلدان إقليمها، وعبثا حاول أن يسترضيه وأن يرده إلى حلب، فاعتزل القضاء وعاش للتأليف ونظم الشعر وصوغ النثر حتى توفى سنة ٧٤٩. وله مؤلفات علمية مختلفة شعرا ونثرا. فقد نظم كتاب الحاوى في الفقه الشافعى في منظومة بلغت أكثر من خمس آلاف بيت، وله مصنفات لغوية ونحوية، منها شرح على ألفية ابن مالك وآخر على ألفية ابن معطى. وهو معدود في شعراء القرن الثامن النابيين، ويقول ابن شاعر: "أجاد في المنثور والمنظوم، فنظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية" ز وديوانه كبير وهو مطبوع في الأستانة من قديم، وله بعض بربايعيات وبعض موشحات، أنشد منهما السبكي في ترجمته، وله خمس مقامات، ورسائل كثيرة منشورة مع ديوانه، وفي رأينا أن نثره أروع من شعره، ولذلك اخترنا أن نتحدث عن أبداع ماله من كتابات أدبية، ونقصد مقاماته.

وأولى المقامات في الديوان المقامة الصوفية، ومنها يُجرى ابن الوردى حوارا بين مواطن له من المعرة سافر إلى بيت المقدسى وبيت عشرة من الصوفية في مقدمتهم شيخ كبير، وكانوا يتبادلون فيما بينهم أحاديث وكلمات صوفية رمزية، وأشركوا معهم في الحديث هذا الوافد المعرى، وأخذ يسألهم عن أحوالهم ورموزهم وإشاراتهم وتقصير ثيابهم وعاداتهم أو الشيخ يجيب. وأحيانا ينتقد صوفية زمنه وأنهم لا يتبعون المنهج السديد لأسلافهم حتى ليقول: "أن المتصوفة اليوم أصحاب أكل وشرب ونوم، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال، وأفقوا أسلافهم ملبسًا، وخالفوهم أنفسا". والمقامة طريفة في عرضها لأحوال الصوفية في تلك الأيام، وحري بنا أن نذكر فاتحتها لنقف على أسلوب ابن الوردى في مقاماته، يقول (١):

"حكى إنسان، من معرّة النعمان، قال: سافرت إلى القدس الشريف، سفر منكر بعد تروع حصة حالية العذارى فقلنا دائم الحكم والإمضاء، وإذا عين كعين الخنساء تجرى

(١) الرمضاء: شدة الحر.

على خر، ويقول ماؤها أنا سيد مياه هذا الوادى ولا فخر، وفرويت كبدَ صادٍ (١) من تلك العين، ولكن تُعص منظرها الحسن بذكر ظمأ الحسين".

وقد تصنع ابن الوردى في أول مقامته لمصطلح التعريف والتتكير في النحو، ولم يلبث أن اقتبس في وصف الوادى ألفاظ بيتين مشهورين من الشعر في وصفواد للمنازى معاصر أبى العلاء إذ يقول:

وقانا لفحة الرّمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمسُ جانب العقد النظيم

واشتهرت الخنساء بكثرة بكائها لى أخيها صخر فاسغلّ ابن الوردى ذلك في التورية عن هذه العين الحقيقية التي تجرى مياهها على الصخر، ويقول أن منظرها الحسن ذكره بحادثة الحسين ومقتله في كربلاء وطلبه الما من أعدائه ومنعه عنه وروحه تصعد إلى بارئها. ولم نمض قراءة المقامة لنراه و يقتبس آى الذكر الحكيم ويتمثل بالأشعار والحكم والأمثال، مما جعل الكتابة حينئذ تنوء بكلف كثيرة.

وسمى ابن الوردى مقامته الثانية المقامة الانطاكية، واتخذ فيها أيضا شخصا من المعرة يزورها ويصف محاسنها ومحاسن الطبيعية من حوله، ويحمد الله على أن ردها من حملة الصليب إلى العرب، ويأسى لما فيها من تباغض بين العرب والروم.

والمقامة الثالثة سماها المقامة المنبجية، ومنبج إحدى القرى الكيرة في حلب، وفيها يحكى أيضا شخص من العرة أنه دخلها فرثى لما اصاب مساجدها وأبنيتها من دثور. وكان حملة الصليب قد استولوا عليها قديما وعاثوا فيها. ويلم ابن الوردى مدرستها النورية، فإذا مدرستها القاضى حدث السن، فظن أنه ليس بشيء، فلما ساله عن حاجته قال: "نحن عشرة ذوو نسب وأولوا علم وأدب، وقد أنشد كل منا بيتى شعر، سامها (٢) فضل سعر، وأقام وزنهما، وقال إنهما وإنهما، وأنا رسول أصحابى إليك لتتصف بيننا وقد دُلت عليك" فقال له: قل ما أردت أن تقول، فأخذ يعرض عليه أبياتا في الغزل

(١) صاد: عطشان شديد العطش.

(٢) سامها فضل سعر. غالى بهما في السعر.

وغير الغزل، والقاضى يعلق تعليقات نقدية بديعة. وحينئذ رجع المعرى إلى نفسه يلومها لسوء ظنها بالمدرس، وأطال شكره.

وسمى المقامة الرابعة المشهدية وفيها يلقي شخصٌ معرّئُ أمرا يحدثه عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة وما يجرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس، وبنهاه الأمير عن الاشتراك في هذه البدع المحرمة، وينوه بقاضى القضاة ابن الزملكاني الذي أمر بإبطالها وشدد في النكير عليها، ويدعو له قائلاً:

"لازال نداءه (١) مثل حرف النداء، كفيلا بضم الأقرين والبعداء، ومن وُصل به نال عُرفاً (٢)، واكتسب تابعه على اللفظ والمحل عطفاً، حتى يكون علمه علماً منصوباً، وعواطفه للمعارف خيراً مبتدأً به منسوباً، ولا برح مرفوعاً بفعل الحسنى، وسيوف بحوثه ماضية فهي على الفتح تُبْنَى".

وواضح مدى ما تكلفه ابن الوردى من حشد مصطلحات النحو في عبارات الثناء على ابن الزملكاني وسجعاته، وفلا زال ابن الزملكاني مثل حرف النداء في النحو ينادى به القريب والبعيد، والتابع مفرد والتوابع، وهى العطف والنعت والتوكيد والبدل، ولذلك ذكر مع التابع العطف، وجلب من النحو كلمة "منصوباً" واراد بها أن العلم مرفوع، وذكر المعارف والخبر والمبتدأ والنسب والرفع والمضى والبناء على الفتح. كل ذلك حشده في هذه السجعات القليلة، ولم يكن ينعم ذلك دائماً ولكن من حين إلى حين تلقانا في نثره هذه الرقع التي تدل على التكلف الشديد.

ومقامته الخامسة في وصف حريق دمشق الذي وصفه معاره الصفدى. ومرت بنا قطعة من وصفه، وسمى ابن الوردى هذه المقامة باسم "صفو الرحيق في وصف الحريق" ورواها عن شخص يسمى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر، والصلة بينها وبين رسالة الصفدى في الموضوع نفسه قوية، ويبدو أن الصفدى اقتبس كثيراً من حتى عنوان مقامته وهو "رشف الرحيق في وصف الحريق". وله رسالة بديعة في وصف وباء

(١) نداء: كرمه.

(٢) العرف: المعروف.

الطاعون الذي فتك بسيا وامتد من الصين والهند إلى الشام ومصر لسنة ٧٤٩
ويسمى ابن حجر مقامة، وتسميتها - كما جاء في الديوان - باسم رسالة أولى لغياب
الرواية والحوار فيها، ومثلها رسالته التي كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم، وهى
رسالة طريفة.

المواعظ والابتهالات

فرض الإسلام الوعظ في خطب المساجد كل يوم جمعة وفي العيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى، ومعنى ذلك أن جميع البلدان الإسلامية طوال الأزمنة المختلفة كانت تموج بخطب الوعظ وإن لم تعن كتب الأدباء بتسجيلها، لأنها كانت أكثر من أن يحيط بها حصر أو استقصاء، غير أنها بقيت منها شظايا، وأول ما يلقانا من ذلك في الشام خطب الخلفاء منذ معاوية، ولعمر بن عبد العزيز من ذلك الحظ الأوفر. وكان الفُصَّاص منذ معاوية يعظون الناس، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين: مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب وعين للقصاص مرتبات (١) خاصة. ويشتهر في زمن عمر بن عبد العزيز غير واعظ مثل رجاء بن حيوة المتوفى سنة ١١٢ ومثل غيلان الدمشقي وكانت له رسائل مليئة بالوعظ. وظلت الشام تمتلئ بالوعاظ طوال القرن الثاني وفي مقدمتهم الأوزاعي صاحب المذهب المشهور. وبالمثل ظل الوعظ حيا مزدهرا في القرنين الثالث والرابع، ويلقانا في حلب لزمن سيف الدولة واعظ كبير هو عبد الرحيم بن محمد المعروف باسم ابن نباته، وسنقف قليلا عند خطبه، ولا نلبث أن نلتقى بأبي العلاء، والعظات وتمجيد الله والزهد في متاع الدنيا يكثر في أشعاره وكتبه، وما نفتح الصفحة الأولى من اللزوميات حتى نجده يقول: "أن من هذه الأوراق ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد.. وبعضها تذكير للناسين، وتنبية للرقد الغافلين، وتحذير من الدنيا". وله بجانب اللزوميات ديوان ثان في العظة والزهد والاستغفار سماه: "استغفر واستغفري" سقط من يد الزم، وكان يشتمل كما يقول مترجموه على نحو عشرة آلاف بيت. وكان له في النثر دعاء يعرف بدعاء ساعة ودعاء يعرف بدعاء الأيام السبعة، وكتاب يعرف بالسجعات العشر في الوعظ، وكتاب يعرف بسيف الخطب، وفيه خطب الجمع وليدين والخسوف والكسوف والاستسقاء وعقد الزواج، وقد بنى سجعها على الحروف السهلة ثل الهمزة والباء والتالء والبدالء واللام واليم والنون،

(١) انظر في ذلك كتابنا الفن ومذهبه في النثر العربي (طبع دار المعارف ت الطبعة التاسعة) ص ٧٥.

لان الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون ليينا سهلا. وله كتاب تاج الحرة، وهو في عظات النساء خاصة. وكل هذه الكتب سقطت قديما من يد الزمن، وبقي من عظاته قسم كبير من كتابه الفصول والغايات، وسنخصه بحديثها قليل.

ويحتدم الوعظ منذ نزول الصليبيين الشام لبث الحمية الدينية في نفوس الناس، حتى يجاهدوا في سبيل الله، ويضربوا حملة الصليب الضربات القاضية. واشتهر كثيرون حينئذ بروعة وعظهم، منهم بنو العديم في حلب لعهد نور الدين، ومنهم ابن نجا خطيب دمشق المولود بها سنة ٥٠٨ والمتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٩، ومنهم محي الدين محمد بن الزكي قاضي دمشق وخطيبها، وهو الذي خطب أول جمعة صُلِّيت بالقدس بعد فتحه، وسنلم بخطبته.

ومن الوعاظ المشهورين حينئذ المذهب الدمشقي الذي لقيه العماد الأصبهاني - كما يقول بخريدته - بدمشق سنة ٥٧١ وسنلم برسالة أدبية له ذكرها العماد ويُعدُّ سبط ابن الجوزي يوسف بن قزوغلي أكبر واعظ شهدته دمشق طوال النصف الأول من القرن السابع الهجري حتى وفاته سنة ٦٥٤ وقد نزلها سنة ٦٠٠ واتخذها مسكنا ودار إقامة. وكان ق نشأ في حجر جده ابن الجوزي واستمع في مواعظه الرائعة التي نوهنا بها في حديثنا عن العراق، وطارت شهرته في الوعظ كما طارت شهرة جده، وكان يحضر مجلسه القضاة والإشراف والأعيان "ونالته السعادة والوجاهة عند الملوك لا سيما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق فإنه كان عنده بالمنزلة العظيمة، وكان له لسان حلو في الوعظ والتذكار ولكلامه موقع في القلوب (١)" ويصف أو شامة مجلس وعظه في كتابه "ذيل الروضتين" فيقول: "كانت مجالس وعظه ن محاسن الدنيا ولذاتها. وكان يزدحم في مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء، والنساء بمعزل عن الرجال في جامع دمشق، وجامع الجبل، حضرت مجلسه صغر وكبرى في الموضعين مرارا، وكان لا يفارق أحد مجلسه إذا انقض إلا وشوقه مستمر إلى عودته في الأسبوع الآخر. وكان يجلس [للوعظ] كل سبت وتُبَسَّطُ السجادات والحُصُر والبسط ف كل المواضع القريبة

(١) النجوم الزاهرة ٣٩/٧.

من المنبر ما بين وبين القبة في يوم الجمعة، وبييت الناس ليلة كل سبت حلقاً، يقرءون القرآن بالشموع، كل ذلك فرحاً بمجلسه ومساابقة إلى الأماكن^(١).

ومن كبار الوعاظ في أوائل أيام المماليك ابن غانم المقدسى، وله حوار طريف مع إبليس سماه "القول النفيس في تغليس إبليس" وهى رسالة صغيرة، أراد بها أن يُعلم شياطين الإنس من أتباعه ضلالهم ومدى ما يتخبطون فيه من الغى. وأطراف من هذه الرسالة رسالة له سماها "كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار" وسنتحدث عنها بين الرسائل الأدبية. ومن خطباء دمشق ناصر الدين ابن البارزى المتوفى سنة ٨٢٣ ولى خطابة الجامع الأموى فترة، ويقول ابن حجة: "لما فوضت عليه خطابة الجامع الأموى لم يبق أحد من أعيان دمشق إلا حضر في تلك الجمعة لأجل سماع خطبته، وكانت براعتها (فاتحتها): الحمد لله الذي أيد محمداً بهجرته، ونقله من أحبّ البقاع إليه لما اختاره من تأييد ورفعته^(٢)". ولا ريب أن الخطابة الدينية أطردها أزهارها أيام العثمانيين، وأن كانت كتب التراجم لم تصور ذلك تصويراً واضحاً. ونقف عند طائفة من خطب المواعظ ورسائلها وكتبها البديعة.

(أ) خطب ابن^(٣) نباته الفارقي

ابن نباته الفارقي هو الخطيب عبد الرحيم بن محمد، وفيه يقول ابن خلكان: "صاحب الخطب المشهورة. وقع الإجماع على أنه ما عثمل مثلها وفيها دلالة على غزارة عمله وجودة قريحته، وكان خطيب حلب أيام سيف الدولة الحمداني وكان كثير الغزوات، ولهذا أكثر ابن نباته من خطب الجهاد ليحض الناس عليه، ويحثهم على نصرة سيف الولة. ولد سنة ٣٣٦٥ وتوفى سنة ٣٧٤. وخلفه في الخطابة ابنه أبو طاهر محمد المتوفى سنة ٣٩٠ ثم حفية أبو الفرج طاهر المتوفى عام ٤٢٠. وطُبعت خطبهم جميعاً مراراً، وطُبعت خطب عبد الرحيم مفردة وقد جعلها على عدد جُمع السنة ابتداء من شهر المحرم إلى نهاية شهر ذى الحجة ومن قوله في الخطبة الثالثة لشهر صفر، بعد حمد الله والصلاة على رسوله الكريم:

(١) ذيل الروضتين (طبعة سنة ١٩٤٧) ص ٤٩.

(٢) خزائن الأدب ص ٢٠.

(٣) انظر في ابن نباته الفارقي ابن خلكان ١٥٦/٣ وعبر الذهبي ٣٦٧/٢ والشذرات ٨٣/٣.

"أيها الناس ! تنزهوا عن حب الدنيا فإن متاعها قليل، وتزودوا بتقواكم فإن السفر طويل، ولا تطمعوا في هذه الدنيا فإن البقاء فيها مستحيل، كيف لا والمنادى ينادى كل يوم يا عباد الله الرحيل الرحيل، هو الموت الذي ما فيه فوتٌ ولا تعجيل، ولا يقبل الله فيه الفداء ولا يرضاه من بديل، كم ألحق عليلاً بصحيح وصحيحاً بعليل، وكم أخذ قريباً من قريب وخليلاً من خليل، فكيف تطمعون في الدنيا بالإقامة فيها وقابض الأرواح عزرائيل، فالى متى هذه الغفلة والقساوة ولم يبق من العمل إلا القليل، ثم ترجعون إلى ربكم المتعالى في كماله عن الشبيه والمثيل".

ولغة ابن نباته في خطابه عذبة سائغة، وقد بناها على السجع شأنه في ذلك شأن الخطباء والكتاب في العصر، فقد عم السجع حتى في الكتابات التاريخية كما مر بنا عند العماد الاصباني، وسجعه يلذ الأذان حين تصغى إليه، لسهولته وخفته وبراعته في صوغه حتى لتتوالى الخطبة مسجوعة على روى واحد، ويقول في الخطبة الثانية من خطب شهر رمضان:

"عباد الله أن شهركم هذا الشهر البركات والسرور، شهر ضاعف الله أجره وهو بالخيرات مغمور، والتجارة فيه لن تبور.. عباد الله! أوصيكم بالإكثار من كل عمل مبرور، وإنهاكم أن تُحبطوا صيامكم بالغيبة والنميمة وقول الزور.. يا مفطرا بالحرام لأى شىء يكون ألافطار والسحور، يا غافلا عن طاعة الله ما هذه الغفلة والفتور، يا هائما في تيه الهوى أما تخشى ظلمات القبور... يا مائلا إلى زهرة الدنيا، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، يا عادلا عن طريق الهدى متى تهتدى ليوم النُشور".

وبهذه اللغة الصافية الحلوة كان ابن نباتية يعظ الناس في أيام الجمع، فيبلغ الأعماق من قلوبهم وأفئدتهم ونحس بصلة قوية بين خطبه خطب على بن أبى طالب في نهج البلاغة، وبدون ريب كان يثير في خطابه ببيانه الرائع.

(ب) الفصول والغايات^(١)

هذا كتاب جمعيه وعظ لأبى العلاء المعرى قصد به إلى تمجيد الله العلى الأعلى، بدأ تأليفه قبل ذهابه إلى بغداد وأتمه بعد رجوعه، وقد اثار ضجة حوله منذ ظهوره، إذ زعم بعض خصومه منذ زمنه إلى أنه وضعه معارضة^(٢) للقرآن الكريم، ونجد تلميذه ابن سنان الخفاجى الذي مرت ترجمته ينفى عنه بشدة هذه التهمة^(٣)، ولعل من أسبابها أنه سمى الكتاب: "الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات" وهو لا يريد محاذاة القرآن في أسلوبه وإنما يريد محاذاة في تمجيد الله وتحميده الثناء عليه، وهو نفسه يقول في كتابه: "علم ربنا ما علم، أنى ألفت الكلم، أمل رضاه المسلم، وأتقى سخطه المؤمن، فهب لى ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب". والكتاب جميعه وعظ وزهد وخوف من الله وتقوى وورع وعبادة ونسك، مع الشعور الدائم بالتقصير إزاء ربه وعبادته المثلى حتى ليقول^(٤):

"لو نقلتُ مياه اللّجج على منكبى في قُذاف^(٥)، وافرغته على مناكب الجبال، وجررت كُثبان الأرض وصرائمها^(٦) في جَرٍّ أو مِشاةٍ^(٧)، فألقيتها في الخُضَر^(٨) الدائمات، حَفْدًا^(٩) لله كنتُ أحدَ العجزة المقصرين، ولو أذن لى وأبّدتُ فاتبنيتُ

(١) انظر الفصول والغايات (طبعة محمود زياتى) وقد نشر القسم الأول منها وينتهى في الغايات إلى حرف الخاء.

(٢) راجع سفر تامة لناصر خسرو (الترجمة العربية طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١١ ودمية القصر ١٣٠/١ وتعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١.

(٣) تعريف القدماء بابى العلاء ص ٤٢٦.

(٤) الفصول والغايات ٥٩/١.

(٥) قذاف: جرة

(٦) صرائم: جمع صريمة وهى القطعة من الرمل.

(٧) جر، مشاة: زبيل.

(٨) الخضز: اللجج

(٩) حفدا: خدمة

مَراهص (١) من الثرى الأسفل إلى الثريا، ومن الوتد، المتخذ من عواد إلى وتد السعود (٢)، أوْد ما يوجبه جلال الله، فكيف وأن أقصر الصلاة، وأداني بني الركعات".

وهو يقول: مهما تنسك ومهما أدى من العبادات والأعمال فإنه لن يبرحه شعوره بعجزه وقصوره إزاء جلال الله وهيبته العظمى، حتى لو نقل مياه اللجج الزاخرة على منكبه في جرار تلو جرار مفرغا لها على مناكب الجبال، وحتى لو جر كَثبان الأرض وراء كثيف زناييل وألقاها في لجج البحار تقريبا إلى ربه، وحتى لو ابتنى من الثرى طبقات بعضها فوق بعض وبلغ بها عنان السماء إلى الثريا أو لو اتخذ من أوتاد العيدان أو تادا يتراكم بعضها فوق بعضن حتى يصل إلى وتد السعود، لظل شاعرا بوهنه وقصوره أمام ما توجه تجلة الله وعظمته. وإنه ليصيح مبتهلا إلى ربه في جزع لا يدانيه جزع: "أن كان الدمع يطفئ غضبك فهَب لي عينين كأنهما غامتا شَتِي (٣) تبلان (٤) الصباح والمساء (٥)" إنه سيظل ما عاش باكيا ذارفا الدموع سائلا من ربه رضاه ورضوانه. ولهذه الصيحة أخوات كثيرة في الكتاب، فأبو العلاء فيه دائما يناجى ربه ضارعا بل وجلا خائفاً.

والكتاب منقسم إلى ثمانية وعشرين فصلا بعدد حروف المعجم، وكل فصل لحرف ينقسم إلى فقر، وكل فقرة تنتهى بالحروف الذي اختاره للفصل ويسمى غاية، ويلتزم أبو العلاء قبل غاياته الألف دائما. وليس هذا كل ما صعبه على نفسه في الكتابين فقد التزم في كثيرن الفقر أن تشترك سجعاتها في حرفين أو أكثر على طريقة ما نعرف في لزومياته. والتزم بجانب ذلك أن يجلب إلى سجعات الكتاب كثيرا من الألفاظ الغريبة، وإنها لتغلب على سجعاته غلبة شديدة، حتى ليتمكن أن نقول إنها إحدى خصائصه أو أحد التزاماته. وعلى عادته في أشعاره كثيرا ما يضيف بعض ألوان البديع وخاصة الجنس. وكما أرينا في اللزوميات يكثر في الفصول والغايات من ذكر المصطلحات

(١) مراهص: طبقات

(٢) وتد السعود: سعد الأخببية: نجوم معروفة.

(٣) شتى لك من الشتاء ويريد سحابا دائم المطر.

(٤) تبلان: تهطلان، من الويل وهو المطر الغزير.

(٥) الفصول والغايات ٢٥٩/١.

العلمية يجلبها من جميع العلوم، وكأنما يراها وشيا خليقا أن يضاف إلى فصوله وغاياته وقره فيه، من ذلك قوله مستظهراً لبعض مصطلحات علم الصرف^(١).

"لا تجعلني ربّ معتلا كوار يقوم، ولا مبدلا كواو موقن من اليا، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستغناء، كواو جدول وعجوز، فأما واوعمروا فأعوذ بك ربّ الأشياء، إنما هي صورة لا جرس لها ولا غناء، مشبهها لا يحسب من النسما".

وعلماء الصرف يقولون أن واويقوم أصلها يقوم باستنقلت الضمة على الواو فنقلت إلى ما قبلها واعتلت، وأن كلمة "موقن" أصلها مُيقن، فقلبت الياء واوا لسكونها وانضمام ما قبلها، وأن الواو في جدول وعجوز زائدة لأنهما مشتقات من الجدول والعجز. ومعروف أن واو عمرو تكتب ولا تنطق تمييزاً للكلمة من كلمة عمر. وكل ذلك يحشده أبو العلاء في بعض وعظه بل إنه ليحشد كثير من دقائق المصطلحات العلمية لم نر حاجة إلى ذكرها. وحسبنا ما قدمناه لنأخذ صورة عن كتاب الفصول والغايات، وفي كتابنا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" كلمة عنه أكثر بسطا وتفصيلاً وتحليلاً.

(ج) خطبة القدس بعد فتحه لمحبي الدين بن الزكي

أما الخطيب فهو محيي^(٢) الدين محمد بن الزكي على من سلالة عثمان بن عفان رضى الله عنه، كانوا قضاة في دمشق، وكانت ولادته سنة ٥٥٠، وكانت له عند صلاح الدين منزلة عالية، فلما صارت له حلب ولاء قضاءها، حتى إذا فُتحت القدس، وكان محيي الدين حاضراً فتحها تطاولت الأعناق إلى الخطابة بها في أول يوم جمعة، وأعدّ من كانوا في حضرته خطبها بليغة يخطبون بها في هذا اليوم واختار صلاح محيي الدين، فألقى خطبة ضافية ابتدأها بفاتحة الكتاب ثم تلاها بالتحميدات في أول سورة الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر، ثم شرع في الخطبة وقال^(٣) فيها.

"الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفار بمركره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وعمل العاقبة للمتقين

(١) الفصول والغايات ١/١٤٢.

(٢) انظر ترجمة محي الدين في طبقات السبكي ١٥٧/٦ وابن خلكان ٢٢٩/٤ وعبر الذهبي ٢٠١/٤ والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ٢٠١/٤ والبداية والنهاية ٣٢/١٣ والنجوم الزاهرة ١٨١/٦ والشذرات ٣٣٧/٤.

(٣) انظر الخطبة كاملة في ابن خلكان والروضتين ١١٠/٢.

بفضله، وأفاء على عباده ن ظله، وأظهر دينه على الدين كله.. أمدّه على إظهاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره.

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة (١)، من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام، بعد ابتذالها في أيى المشركين قريبا من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإمّاطة (٢) الشرك عن طريقه بعد أن أمتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه.. ولولا أنكم ممن أختاره الله من عباده، اصطفاه من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم في شرفها مُبار. وهذا هو الفتح اللى فُتحت له أبواب السماء، وتبلجت (٣) بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقرَّ به عينا الأنبياء المرسلون.. فاحفظوا- رحمكم الله- هذه الموهبة فيكم، وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي منْ تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعزوتها نجا وعُصم، واحذروا من أتباع الهوى ومواقعة الردى، ورجوع القهقري... الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، وأذلاله من كفر".

والخطبة طويلة، وقد أكتفيا منها بهذه الشظايا الرائعة التي تصور فرحة السلمين بهذا الفتح المبين والنصر العظيم، وكأنما عادت المعجزة النبوية وأيام بَدْر وفتوح الشام ومصر والقادسية وهجمات خالد والصحابه الأولين، وما النصر إلا من عند الله.

(١) الضالة هنا: كل ما ضل وضاع، في المثل: الحكمة ضالة المؤمن.

(٢) إمّاطة: تنحية وإبعاد.

(٣) تبلجت: أشرقت.

(د) كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار

مؤلف هذا الكتاب الطريف ابن (١) غانم عبد السلام بن أحمد المقدسى الواعظ المشهور لزمه المتوفى سنة ٦٧٨، والكتاب في ٣٠ صفحة، ذكر في مقدمته ما يفصح عن موضوعه قائلاً: "قد وضعت كتابي هذا مترجماعما استقدته من الحيوان برمزه، والجماد بغمزه، وما خطابتني به الأزاهير بلسان حالها، والشحارير عن ما قرأت حالها. وسميته كشف الاسراع نحكم الطيور والأزهار، وجعلته موزعة لأهل الاعتبار، وتذكرة لذوى الأبصار والاستبصار". ويقول إنه خرج يوماً ليتأمل في الطبيعة وأسرارها، وانتهى إلى روضة رق نسيمها وغنى عندليبها، وكان وحيداً وأخذ كل ما حوله يخاطبه بلسان الحال ودالا على القدرة الإلهية وحكمة الله في خلقه وعظيم صنعته، وسجل من ذلك عظات بليغة على السنة الأزهار ثم السنة الطيرة ثم السنة الطير ثم السنة الحيوان. وبدأ بالنسيم رسول كل محب إلى حبيبه، وحامل شكوى كل عليل إلى طبيبه، ثم تركه إلى الأشجار واحداً عشر نوعاً من الأشجار واحد عشر نوعاً من الأزهار استهلها بالورد قائلاً على لسانه "أنا الضيف، فاغتموا وقتي فالوقت سيف، أعطيت نفسه العاشق وكسيت ملاحه المعشوق، وأنا الزائر وأنا المزور، ومن طمع في بقائي فإن ذلك زور، ثم من علامة الدهر المذكور، والعيش المحرور، أنى حيثما نبتُ رأيت الأشواك تتراحمنى وتجاورنى، فأنا بين الأدغال مطروح، وبنال شوكى مجروح. وهذا دمي على عندي يلوح، وهذا حالي وأنا أطف الأورد، وأشرف الوزد، فمن صبر على نكد الدنيا بلغ المراد".

وختم ابن غانم الكلمة بالعظة التي يريدها، وجعل الورد ضيقاً على الطبيعة، لأن مدة بقاءه فيها قصيرة، واستغل ما ينبت حوله من شوك ليدل على أن الدنيا مهما أذاقت الناس فيها من حلاوة العيش لا بد أن تجمع إليهم شيئاً من مراراته فليست الدنيا ورداً خالصاً ولا حاية الإنسان فيها دائماً مشرقة زاهية بل لا بد من مظلمة تغشاها، بل هي مزيج من خير وشر وأمل ويأس وسرور وحزن، وجرى بالإنسان فيها أن يصبر ويصابر حتى

(١) انظر في ابن غانم وترجمته البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٩/١٣ ومرآة الجنان للياقعي ١٩٠/٤ والشذرات لابن العماد ٣٦٢/٥.

يبلغ مأموله. ويقول على لسان شجرة البان الذي طالما ذكر المحبون في لينة وتمايل أغصانه محبوباتهم.

"أنظر إلى الورد وقد ورد، وإلى البرد وقد شرد، وإلى الزهر وقد أنقد، وإلى الحبّ وقد انعقد، وإلى الغصن اليابس قد اكتسى بعدما انجرد، وإلى اختلاف الطاعم ومشرّبها قد أتحد، ÷ واعلم أن خالقها أحد، وصانعها صمّد، وموجدتها بالقدرة قد انفرد، لا يشاركه في ملكه أحد، ولا يفتقر هو إلى أحد (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

وهي عظة بليغة على لسان البان، فالربيع أقبل، وأقبل الورد معه، وشرد الشتاء والبرد: واضاء الزهر بألوانه واتقد، وحب الثمار قد انعقد، واكتست الغصون بعد العرى وسقوط الأوراق عنها، ودبت فيها نضرة الحياة، وما أعظم قدرة الله فالنباتات والأشجار تسقى بما واحد وتختلف ثمارها وطعومها بين حلو وحامض، وكل ذلك شاهد على قدرة الله التي لا يشاركه فيها أحد، إنه واحد صمد ليس كمثلته شيء وهو على كل شيء قدير.

وينتقل ابن غانم من الحكاية على لسان الأزهار إلى الحكاية على لسان الأطيّار، ويستهل كلامها بكلام الهزار وهو طائر حسن الصوت متعدد الألحان وعلى لسانه يقول:

"أنا العاشق الولهان، أنا الهائم اللفهان، إ رأيت فصل الربيع قد حان، تجدني في الرياض فرحان، وفي الغياض (١) أردد الألحان.. وأرقص على الأغصان كأن الزهر والنهر لي عيدان (٢) ن وأبوح ترحا لا فرحا، لا أجد روضة إلا نُحْتُ على اضمحلالها، ولا خضرة إلا تبلبلت على زوالها، لأنى ما رأيت قط صفوة إلا تكدرت، ولا عيشة حلوة إلا تمررت، فقرأت في تمثال العرفان، كلُّ من عليها فان".

والهزار في أول العظة فرح بمقدم الربيع، وسرعان ما يفكر في إنتهائه، فيندب وينوح، إذ لا يجد روضة إلا وتضمحل بعد أزدهارها. ويتسع تفكيره حتى يشمل الحياة، فإذا كل ما فيها من صفاء لا يلبث أن تغشاه كدرة قاتمة، وكل ما فيها من عيش حلو

(١) الغياض: جمع غيضة وهي الشجرة الملتف.

(٢) عيدان هنا: جمع عود، وهو الآلة الموسيقية المعروفة.

لا يلبث أن ينقلب عيشا مرا، بل أن كل ما فيها هالك فإن. وسعد من كُتبت له السعادة،
 وشقى من كتب له الشقاء. وينتقل إلى الحيوانات ويختم حديثه عنها بكلام على لسان
 النمل إذ تقول:

"إذا رماك الدهر بمرمى فقمم له، وإذا رأيت من تهيأ للسير فسِرْ قبله، ولا تكن في
 تدبير عيشك أبله، تعلم منى قوة الاستعداد وتحصيل الزاد للمعاد.. كُلفت جمع المئونة
 يتيسر المعونة، وأعطيت قوة الشم من الأماكن البعيدة فأدركت بالشم من بُعد الفراسخ،
 ما لم يدركه ذو العلم الراسخ، ثم أعطيت بالتقدير، حسن التدبير، فأدبر ما أدخره من
 الحب لقوتى، في بيوتى".

والكتاب بذلك كتاب تعليم ووعظ ودفح للإنسان يسير في الطريق السديد، وأعيًا
 لحكمة الله فيخلقه، متعظا بما تورده عليه الحيوانات والأطيوار والأزهار من مواعظ
 وحكم وامثال وأضواء تنير له دنياه، وتعدده إعدادا حسنا لأخراه. ولغة الكتاب سهلة
 بسيطة قريبة من لغة الحياة اليومية لأنه أريد به إلى الوعظ والإرشاد، وهو حقا مسجوع،
 ولكن ليس فيه ألفاظ أبدة غريبة، وتتخلله أبيات شعرية سائغة، تدل على حسن ذوق
 المؤلف ودقة اختياره. وبجانب الأبيات المختارة أبيات من نظمه تدل على أن ابن غانم
 كان يحسن الشعر والنثر جميعاً.

أعمال أدبية: رسائل وغير رسائل

خَلَّفَت الشَّام في هذا العصر أعمالاً أدبية كثيرة، وبلغنا في مفتحته كشاح، وله كتاب المصايد والمطارد عرض فيه الصيد وآلاته وما قيل فيه من الأشعار عرضاً طريفاً، وله بجانبه كتاب في البيزة أو بعبارة أخرى في جوارح الشيد، وكتاب في أدب النديم. ولأبي العلاء المعري أعمال أدبية نثرية كثيرة، ولعل أهمها رسالة الغفرا، وسلم بها عما قليل، وفي خريدة القصر قسم الشام رسالة أدبية بديعة هي رسالة النسر والبلبل، وسنفرد لها كلمة موجزة، وفي الخريدة أيضاً رسالة (١) طريقة ليعمر بنى عيسى المتوفى شاباً سنة ثمان أو تسع وستين وخمسائة، وموضوعها معايشة الإخوان واغتنام الفرصة قبل أن تصبح غصّة في دنيا لا يدوم نعيمها ولا تتدمل كلومها، وعنده أن الفرصة هي الإقبال على اللهو والقصف والصيد والقنص. ويفيض في وصف الصيد وماركبوها فيه من خيل وما حملوا فيه معهم من فهود وكلام وبُزاة وشواهين، ويطيل في بيان صيد له مع بعض رفاقه إلى نحو عشرين صحيفة، وهي رسالة أدبية بارعة كتبها أديب حاذق في فنه وسجعاته وجرسها الموسيقى وفي تصاويره وتلاوينه.

وربما كان أهم من عنى في القرن السادس الهجري بكتابه أعمال نثرية أدبية أسامة بن منقذ الذي مرت ترجمته بين الشعراء، وله كتاب العصا جمع فيه ما نظم من شعر، وهو منشور، وله في سبعة كتب: في الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة ولا آداب والبلاغة والحكمة، واشتمل منها كتاب الآداب على خمسة عشر فصلاً في الأدب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار وحفظ اللسان والقناعة والصبر والحياء وترك الرياء والإصلاح بين الناس والتعفف عن السؤال والتحذير من الظلم والإحسان والحض على فعل الخير. وعادة يورد في كل كتاب ما يتصل به من القرآن والأحاديث النبوية والأشعار وما روى عن العرب والعجم من أقوال. ولأسامة كتاب ثالث هو المنازل والديار ألفه بعد حدوث زلزال شديد سنة ٦٥٢ أتى على حصن شَيْر موطنه وأحاله أنكاثاً وانقاضاً، ويقول في مقدمته: "دعاني إلى جمع هذا الكتاب ما نال

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام) ٣٥٤/١-٣٨٩.

بلادى وأوطاني من الخراب، فإن الزمان جر عليها ذيله، وصرف إلى تعقيتها (١) وحوله وحيله (٢)، فأصبحت (كأن لم تغن بالأمس) وحشة العرصات بعد الانس، قد دثر عمرانها، وهلك سكان، فعادت مغانيها (٣) رسوما، والمسرات بها حسرات وهمومها" وهو كتاب ضم في نحو ٥٠٠ صفحة، اختار فيه أطراف ماله ولسابقيه من أشعار بديعة، وقد جعله في ستة عشر فصلاً: في المنازل والديار والمغاني والأطلال والريع والدمن (٤) والرسم والآثار والمساكن والأرض والأوطان والمدن والبلاد والديار والبيت وبكاء الأهل والإخوان. وأطراف أعماله الأدبية جميعاً كتابه الاعتبار وهو سيرة شخصية وسنخسه بكلمة. ونمضي إلى زمن المماليك ويلقانا بدر الدين بن حبيب وكتابه نسيم الصبا، وهو أشبه بمقالات أدبية في الطبيعة والطيور والحيوان والاخلاق وسنلمّ به عما قليل.

ونلتقى في زمن المماليك بابن حجة الحموى وكتابه "ثمرات الأوراق" وقد طبع مرارا وهو أشبه بكتب المحاضرات، فيه نثرو ورسائل وشعر ونوادر وعظات وأخبار وقصص عن الأجواد والبخلاء والعلماء والحمق والأطباء، مع بعض الأحداث في زمن المؤلف وبعض الحكايات والفكاهات وبأخرة من عصر المماليك نلتقى بابن عرب شاه وكتابه "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" وسنفرد له كلمة.

ونتقدم إلى أيام العثمانيين، ونلتقى بها الدين العامل الذي ترجمنا له بين شعراء الشيعة، وله المحلاة، وهو كتاب شعر ونثر وحكم وأمثال ومواعظ وأخبار ونوادر، وأهم منمكتابه الكشكول، وهو في مجلدين، وبه شذرات من مختلف العلوم الإسلامية والرياضية والطبية، ومن بحوث التاريخ والفلسفة والتصوف، ويفيض بمختارات بديعة من الشعر لمتصوفة ومتفلسفة ولشعراء الغزل والحماسة والحكمة، وحري بناء أن نلم بما وعدنا بالحديث عنه من أعمال أدبية.

(١) تعقيتها: دثورها وطمسها.

(٢) الجيل: الحول والقوة.

(٣) مغانيها: منازلها.

(٤) الدمن: آثار الديار.

(أ) رسالة^(١) الغفران

رسالة طويلة في نحو مائتي صفحة من القطع الكبير أملاها أبو العلاء ردا على رسالة لعلی بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح، وهي تنقسم قسمين: قسما يتحدث فيه عن نهوض ابن القارح من قبره يوم البعث ويتصلو له نزهة في الجنة يلقى بها طائفة من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ويسألهم: بِمَ عُفِرَ لَهُمْ، ويتردد السؤال فيما بعد مما جعل الرسالة تسمى رسالة الغفران ويرد أبو العلاء بن الارج إلى يوم المحشر ليصور أهواله وأهوال الصراط مع الناس انتظارا لمصيره وقد ظل في المحشر واقفا حتى تعب من شدة الحر والظمأ، وكان معك صك التوبة ففكر في دخول الجنة عن طريق خداعة لسدنتها ونظم القصائد الطوال في مدح رضوان ولم يفهم عنه شيئا، وتركه في سادن آخر فنبهه إلى أن يتشبع بالرسول ﷺ وحاول الوصول إليه. ولقي حمزة بن عبد المطلب فتوسل به إلى الإمام علي بن أبي طالب، ورأى أبا علي الفارسي يحاوره نفر من شعراء البادية في تأويله لبعض كلامه، وطلب علي بن أبي طالب منه شاهداً على توبته فاستشهد بقاض من حلب، وسقاه علي من الحوض، وقال له: لا سبيل إلى دخول الجنة قبل الحساب، ورأى استخدام الحيلة فتعلق بركات إبراهيم بن الرسول ﷺ: ويسأله رضوان هل معك من جواظ؟ ويجذبه إبراهيم معه، فيدخلها ويلتقي ثانية بالشعراء ويحاورهم. ويقوم ابن القارح مأدبة يدعو إليها كل من في الجنة من شعراء وعلماء وأدباء، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة، ويطلع فيرى طائفة من الجن، ممن آمنوا بالرسول ﷺ، ويسأل شيخهم عن أشعارهم التي جمع منها المرزباني قطعة صالحة فيقول الشيخ: إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة حيث يلتقي بالحطيئة والخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم، وينظر مثل الخنساء، فيجد أبليل وأمرأ القيس وعنترة وأثنى عشر شاعرا معهم من شعراء الجاهلية والأخطل التغلبي ويحاورهم جميعا. ويعود فيلتقي بآدم عليه السلام وبعض الحيات التي ظلمت في الدنيا، وكوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ونزولها في روضة الحيات. ويمر بجنة الرُّجَّاز، ويحاورهم في

(١) انظر في رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) و(طبعة د. بنت الشاطئ) وهي طبعة محققة (نشر دار المعارف).

أرجازهم حوارا طريفا. وتنتهى رحلة ابن القارح على الصراط وما شاهد من عذاب في الجحيم ومن نعيم لا يماثله نعيم في الجنة، ويقضى ابن القارح إلى المتاع بهذا النعيم.

وهذا هو القسم الأول في الرسالة، وقد كان له تأثير عميق في الآداب العالمية، إذ كتب دانتى الشاعر الإيطالى المتوفى سنة ١٣٢١م على غراره الكوميديا الإلهية، وشُغل بالبحث في ذلك كثير من الباحثين الغربيين ولا يزالون مشغولين.

والقسم الثاني من الرسالة خاص بسؤال ابن القارح لأبى العلاء عن الزندقة والزنادقة، وقد استهلها ابو العلاء بالثناء على ابن القارح لوفاته في زمن يعز فيه الوفاء: وتحدث عن حرفة الأدب وهمومها، ودفح عن المتبى ما يقال من زندقته أو إلحاده إذ كان مثالها كما تشهد بذلك أشعاره، وشك في عقيدة دعبل. وذكر بعض الشعراء الزنادقة وفي مقدمتهم بشار وصالح بن عبد القدوس والوليد بن يزيد، وتعرض لكثير من النحل المارقة في زمنه، وفي مقدمتها القرظمة وغلاة الشيعة كعبد الله بن سبأ وعبد الله بن ميمون القداح رأس العقيدة الإسماعيلية والقائلين بالتناسخ كالهنود وبالحوّل من الصوفية كالحلاج، وأصلّى ابن الروندى الزنديق (١) هو وكتبه: التاج والدماع والقضيب والفريد والمرجان التي طعن فيها على الدين الحنيف نارا حامية من الذم والتفريع، ومن قوله في التاج وهو أهم كتاب ابن الروندى الكافرة: لا يصلح أن يكون نعلا، وأف وتف، وجورب وخف وهما وأديان بجهنم. ويعود إلى حديث ابن القارح، ويعرض لتوبته وتمثيله جالسا للوعظ في مسجد حلب، ويلم بأول سماعه عنه وبشيوخه وبيعض علماء حلب وبتلبيات العرب في الجاهلية وبيعض مسائل فرعية.

والرسالة نفيسة إلا بعد حد لالأن أبا العلاء صورّ فيها المحشر والجحيم والنعيم فحسب، بل أيضا لأنه ساق في حوار مع الشعراء نقدا لغويا وعروضا ونحويا، مع تعرضه لقضية الإنتحال على القدماء، ومع جودة استحسانه لما ساقه من أبيات الشعراء وما ذكر من قصائدهم. وقد عرض في القسم الثاني للنحل الكثير في زمنه وما فيها من خروج على الدين وإلحاد ومرموق. وقد أنحى بزم عنيف على كل المارقين

(١) راجع في ابن الروندى والحادة والر عليه كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام، لعبد الرحمن بدوى.

الملحدين، ومع ذلك يقال إنه حمل الرسالة سخريّة من الدين الحنيف، والرسالة من ذلك بريئة كل البراءة.

ولم نعرض لأسلوبه فيها، وهو نفس أسلوب العام الذي ألفناه، أسلوب يقوم على استخدام الألفاظ المبعدة في الغرابة، تعبيراً عن ثقافته وعلمه الواسع بالعربي، علماً لعل أحداً من أدباء العرب على مر أزمنتهم وعصورهم لم يحظَ به، وهو لا يكتفى بالأغراب في ألفاظ سجعه، بل يضيف إليها كما قلنا في غير ذلك الموضوع وشياً من المحسنات البديعية وخاصة الجناس. وقد ذكر فيها أبو العلاء شبل الدولة بن صالح بن مرداس أمير حلب (٤٢٠-٤٢٩هـ) مما يؤكد أنه أملى رسالته لعهدده في العقد الثالث من القرن الرابع.

(ب) رسالة^(١) النَّسْرِ والبَلْبَل

هي رسالة بديعة للمهذب أبي طالب محمد بن حسان الدمشقي ترجم له العماد الأصبهاني في خريدته. وقال إنه زاره في مدرسته العمادية التيان يدرس بها لطلابه في ربيع الأول سنة ٥٧١ واشتد بعض أشعارهن ثم قال: ونقلت له من رسالة وسمها "بالنَّسْرِ والبَلْبَل" فاختصرتها وأولها.. "ثم ذكر - فيما يبدو فاتحتها، وهي تصور نسراً شاهداً روضاً فاتتاً خلب لبه، ولم يلبث أن استمع إلى بلبل ملاه غبطة وفتنة، وفسأله من أين لك هذا الصوت الساحر وأنا من أنى مالك الطيور ليس لي شيء من سحره وجماله؟ وأجابه أن الصانع الحكيم لا يهب الأصوات حسب الأجسام. والرسالة تبدأ بوصف النسْرِ على هذا النمط:

طار طائر عن بعض الشجر، وقد هب نسيم السحر، وانفلق عمود الفلق^(٢)
وانخرق قميص الغسق^(٣) مشهور بالقَسْرِ^(٤)، موسوم بالنسْرِ، والليل ق شابت دُؤبته

(١) انظر الرسالة في الخريدة (قسم الشام) ٣٤٠/١ وانظر معها ترجمة صاحبها ممد بن حسان وانظره في كتاب المحمدون من الشعراء والوفائي بالوفيات ٣٣٠/٢.

(٢) الفلق: الصبح.

(٣) الغسق: الليل.

(٤) القسر: القهر.

(١)، وأبيضت فمته.. كأنما أجنحته رُكِّبت من العواطف، واستُلبت من البروق الخواطف.. كأنه سهم رُشِق (٢) عن قوس القضاء، أو نجم اشرق في أفق السماء.. يقبض أجنحته ويبسط، ويصعد إلى السماء ويهبط يجرح بأسنة قواده (٣) وأعطاف القبول (٤) وأطراف الصبا، وَيُقَدُّ الشال بخوالف (٥) كأنهما غروب (٦) الظبا، ويفتق بخوافيه (٧) جُيُوبَ الجنوب (٨)، ويخرق بصدرة صدر الريح في الهبوب.. حتى اشرف... على روض أريض (٩). وظل عريض، وأنهار متدفقة، وأشجار موقنة، وظل منثور، ووَرْدٌ ومنثور (١٠)، ومكان بهيج، وزهر أرج.. فمن ورد فضي الأوراق، ذهبى الأحداق، كافورى الصبغة، مسكى الصيغة، مائتى الجسم، هوائى الرسم، حاكت الصبا إهابه، وخاطت الشمال أثوابهن وفتحت الجنوب أكامه، وحسرت (١٢) الدبور عن وجه جماله لثامه، فظهر في افق الشجر، كأنه شهب السحر، أو حدود الحور في القصور، ظهرت في غلائل من الكافور، ومن غصون تجتمع وتفترق، وتترنج وتعتق، والنسائم تلُّ عَقْدَ أزرار الزَّهَر... والشمس تُسفر وتتنقب، وحاجة والغزالة (١٣) يبدو ويحتجب.. فوقف [النسر] في الهواء حين رآها وقال: هذه غاية النفس ومناها.. أين المذهب، وقد حصل المطلب، وأين الرواح وقد اسفر الصباح.. وبيننا هو صاف الأجنحة عليها ينظر من الأفق بعين التعجب إليها، إذ سمع صوتا من بلبل سحرى على وَكْرٍ شجرى، يناغى النسائم بنغمة مزماره، ورنه أوتاره.. وألحان أعذب من

(١) الذؤابة: شعر مقدم الرأس، والاستعارة واضحة.

(٢) رشق: رمى

(٣) القوادم: الريش الطويل في مقدم الجناح.

(٤) القبول: ريح الصبا الشرقية.

(٥) خوالف: جمع خالف هو الريش في مؤخر النسر.

(٦) غروب جمع غرب وهو طرف الحد- الظبا: جمع ظلبة وهو الحد للرمح ونحوه.

(٧) الخوافى: الريش القصير في الجناح.

(٨) الجنوب: ريح جنوبية.

(٩) أريض: كثير النباتات حسن المنظر.

(١٠) المنثور: زهر له رائحة ذكية.

(١١) حاكت: نسجت.

(١٢) حسرت: كشفت والدبور ريح تهب من الغرب.

(١٣) الغزالة: الشمس

نقرات المزاهر، ينثر درا من عقود ألعانه ولؤلؤا من صَدَف افتتانه بين أفنانه (١)، ويرجع قراءة مكتوب غرامة، ويتلو آيات حزنه من مصحف آلامه.. كأنها ما قيل عن مزامير آل داود وتسايحهم في الركوع والسجود.. أو أصوات رهبان الصوامع، أو تلاوة من تتجافى (٢) جُوبهم عن المضاجع.. ثم هوى إلى القرار، لينظر من النافخ في المزمار، فرأى البلبل يرجع سجع ألعانه في ربع أحزانه".

وإذا كان العماد قد اختصر الرسالة، واكتفى بمطالعها أو فواتحها، فإننا زدناها اختصارا، وأكبر الظن، أنه قد أتضح جمال الاسلوب في هذه الرسالة البديعية، فسجعها يطير عن ألعواه بخفته لرشاقة ألعانه وبدع تصاويره. ويفتن النسر صوت البلبل وجمال تلاحيته، فيتجه إليه مسلما عليه، ويظهر العجب لأنه صغير حقير في منظره، وله هذا اللحن المطرب، والصوت المعجب، وبصراحة بما في نفسه، وأنه مع ضخامة جسمه ليست له حلاوة نغماته، فيقول له: "أما علمت أن الأرواح لطائف وهى أشرف من الأجسام، والأجسام كثائف والمعتبر فيها جودة الأفهام، وإنسان العين صغير ويدرك الأكوان والألوان، والإنسان عظيم المعتبر منه الأصغران: القلب واللسان، ما يكون الدر بقدر الصدف، وشتان ما بينهما في القيمة والشرف، ولا الأدمى كالقيل، وبينهما بون في التفصيل.. وأما النغمة التي قرع سمعك سوط لذتها.. فإننى رصعت شذرها (٣) في عقد ألعانى على نغم بعض الألعانى".

ويذكر البلبل للنسر أنه كون الحانه من احتفال يعقد في الروضة كل ليلة لملك ياتيها مع ندمائه، إذا ولى النهار وصَبَغ الليل ثوب الكون بظلمته وتُشَعَلُ له الشموع وتصطف القيان وصفوف الحور والولدان وترجع الأنغام والألعان، وينفضى ليلهم في لهو وسماع وطرب، ومنهم أخذ ألعانه وأنغامه. وعليه إذا أراد أن يكون له صوت حسن أن يحذر وحذوه في الاستماع إلى رنات الغناء في هذا الحفل العجيب. ويعو النسر إلى المبيت في الروض غير أنه ينام، ويضيع منه مراده، ويعاتبه البلبل عتابا مرا قائلا: أن من استلذ المقام، عدم المرام، ووَجَّه إليه الملام. وأكثر البلبل على النسر العتاب،

(١) أفنانه: أغصانه

(٢) هم المسلمون الأتقياء تتجافى جنوبهم عن المضاجع ليلا للعبادة والصلاة.

(٣) الشذر: قطع الذهب وصغار اللؤلؤ.

فودعه وطار، وقد عدم الأوطار. وبطيل المذهب في العظة من هذه القصة وأن بلوغ المراد إنما يكون مع الاجتهاد، وبصدق الطلب يُدرك الأرب. ويقول العماد أن المهذب أتم الرسالة بفصل وعظي ليس من شرط كتابه ذكره، وواضح أن وعظها دار حول الجد في طلب المنى دون مهلة أو ما يشبه المهلة فضلا عن الغفلة وما يشبه الغفلة.

(ج) كتاب الاعتبار^(١)

مذكرات طريفة لأسامة بن منقذ أحد أبطالنا في الحروب الصليبية، وقد مرت ترجمته بين الشعراء، والمذكرات أشبه بترجمة شخصية لأسامة، إذ صور فيها ذكرياته عن تربيته الأولى في شيرز حصن آباءه وما وقع له فيها من أحداث، وقد عاش طويلا نحو مائة عام من سنة ٤٨٨ إلى سنة ٥٨٤ وتقل - كما مر في ترجمته - بين دمشق والقاهرة والموصل.. ووصف ما شاهده واشترك فيه من المعارك الحربية بين المسلمين وحملة الصليب، وشارك - كما مر بنا - في أحداث مص قبيل نهاية الدولة الفاطمية، وروى ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الوزراء. ووصف وصفا حيا حربة تحت لواء نور الدين وأبيه للصليبيين، كما وصف وصفا حيا معيشة حملة الصليب بديار الشام إذا كانت تتصل بينهم وبين المسلمين - حين تضع الحرب أوزارها - علاقات من حسن الجوار، مما جعله ينزل بينهم في بعض الأوقات. وقد وصفهم بأنهم "بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير" ويصورهم متأخرين حاضرياً عن المسلمين. ويذكر في صراحة أن المؤدة انعقدت بينه وبين بعض فرسانهم، ويقول إنه لا توجد عندهم غيرة على نساءهم، ويصورهم متخلفين في الطب تخلفا شديدا، ويقص هذه النادرة:

"من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (في أعالي الشام) كتب إلى عمى أمير شيرز يطلب منه إنقاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه، فأرسل إليهم طبيبا نصرانياً يقال له ثابت فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما دوايت المرضى! قال: أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف فعملت

(١) نشر فيليب حتى هذا الكتاب في برستون سنة ١٩٣١ وراجع من كتابه عنه في كتابنا: الترجمة الشخصية والرحلة (طبع دار المعارف).

للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب
إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء (فكيف) يدويهما؟ وقال للفارس: أيما أحب إليك؟
تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة، فقال: أحضروا إلى
فارسا قويا وفارسا قاطعا، فحضر الناس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة
(قطعة) خشب، وقال للفارس: أضرب رجله بالفأس ضرة واحدة، أقطعها، فضربه وأنا
أره ضربة واحدة فما انقطعت وضربه ضربة ثانية، فسأل مخ الساق، ومات من ساعته،
وأبصر المرأة، فقال: هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشاها، الحقوا شعرها، فحلوه.
وعادت تأكل من مأكلمهم: الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال، الشيطان قد دخل في
رأسها، فأخذ موسى، وشق رأسها صليبا، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس فحكه
بالمح، فقلت لهم: أبقى لكم إلى حاجة؟ قال فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أعرفه".

وثابت الطيب إنما قال الجملة الأخيرة سخرية من طبهم. ويتحدث أسامة طويلا
عن عاداتهم وما أخذوه من العادات الإسلامية الشرقية في المطعم والملبس، مما يؤكد
أنهم كانوا قد غزوا ديارنا فقد غزتهم بمدنيتها وحضارتها.

وليس في هذه الترجمة الشخصية لأسامة أي ترتيب زمني ولا أي نسق تاليفي، بل
الاجبار أو قل الذكريات ياخذ بعضها برقاب بعض، ذكرى من الكهولة وذكرى من
الشباب وذكرى من الشيخوخة، أو قل إنها ذكريات مبعثرة، غير أنها كتبت بأسلوب
قصصي ممتع لا تصنع فيه ولا تكلف، فلا سجع يداخله ولا محسن من محسنات
البديع، بل يترك أسامة نفسه على سجيته يصف ما شاهد وصفا ناضبا بالحياة في لغة
سهلة، حتى لتقترب أحيانا من العامية. وتشهد بذلك القطعة المارة آنفا، ففيها بعض
الخطأ في الإعراب وفي نسق الأسلوب، غير أن ذلك لا يتصل في الذكريات اتصالا
من شأنه أن يخرجها من المجال الأدبي الفصيح، وجعل هذا المنحى أسامة يستخدم
أحيانا كلمات إفرنجية وأخرى فارسية أو تركية، و:انما يري أداء الواقع بكل ما يتصل به
من لغة الناس لزمه. وفي الحق أن هذه الذكريات نفيسة إلى أبعد حد لما تحمل من
أحداث حربية وسياسية وأحوال اجتماعية وخاصة لحملة الصليب، سجّلها مشاهد لها
رأها تحت بصره.

(د) نسيم^(١) الصبا

مؤلف هذا الكتاب الذي يُعدُّ طرفه أدبية نفيسة بدر الدين الحسن بن عمر الدمشقي المعروف باسم ابن حبيب احد اجداده، ولد لأبيه بدمشق سنة ٧١٠ ولم يلبث الأب أن عين محتسبا بحلب، فنشأ بها بدر الدين، ورحل في طلب العلم والأدب إلى دمشق وأخذ عن أبين نباته ثم إلى القاهرة والفسطاط سنة ٧٣٦ وأقام في الاسكندرية مدة، ثم تركها إلى القدس والخليل ومكة. وعاد إلى حلب فطرابلس سنة ٧٥٨ وناب عن الحكم بدمشق في عهد الأمير سيف الدين منجك، وولى كتابة الإنشاء فترة وعاد إلى حلب وبها توفي سنة ٧٧٩. وله تاريخ في سلاطين المماليك سماه درة الأسلاك في دولة الأتراك وهو مسجوع. وله تذكرة النبيه في ايام المنصور (قلاوون) وبنية، وله في السيرة النبوية كتابان: النجم الثاقب في إشراف المناقب، والمقتفى في ذكر فضائل المصطفى.

وأهم أعمال ابن حبيب الادبية "نسيم الصبا" وهو ثلاثون فصلاً أو مقالة بتعتبرنا الحديث، اتخذ موضوعها الطبيعة أحياناً، إذ له فيها ثمانية فصول في وصف السماء، والشمس والقمر، والمطر، والليل والنهار وفصول العام والبحر والنهر، والأشجار والثمار والروض والأزهار، وأحياناً اتخذ موضوعها الحيوان والطيور إذ له فيه أربعة فصول في الخيل والإبل والوحش، والطيور، ورمى البندق أو الصيد. وأحياناً اخرى أخذ موضوعها الأخلاق الاجتماعية كالكرم والشجاعة والعدل والإحسان. وقد يتخذ موضوعها الإنسان كوصف غلام أو وصف جارية، أو بعض علاقاته الإخوانية كالاستعطاف والشكر والثناء والتهنئة والرثاء، أو بعض شئونه المدنية كالكتابة، أو بعض شئونه الحربية كالسلاح والمعارك الحاطمة للأعداء، أو بعض علاقاته بالمرأة وما قد يحدث بينهما من الفراق أو يرضيه من العشق، وقد أدار الفصل الخاص به على مدحه وذمه، يذكر فيه محاسنه ومساويه. وبعض الفصول - كما يتضح من موضوعها - مفاخرات أو مناظرات، على نحو ما يلقانا عن فصول السنة في الفصل الخامس، ونشعر دائماً بالقدرة على التعبير للسجوع والتوير الرابع كقوله في الفصل السادس يصف البحر وسفينة شق بها عُبابه:

(١) انظر في نسيم الصبا ومؤلفه بدر الدين بن حبيب الدرر الكامنة لابن حجر ١١٢/٢ والنجوم الزاهرة ١١/١٨٩ والشذرات ٦/٢٦٧ وتقاريط الصدف لنسيم الصبا بين بي طبعته سنة ١٢٩٠ هـ.

"هزّنتى رياح الأمل البسيط، إلى أمتطاء تَبج^(١) البحر المحيط، فاتيت سفينة يطيب
للسَّفْر مثاها، وركبتُ فيها (بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا).. يالها سفينة، على الأموال
أمينة، ذات دُسْر^(٢) وألواح، تجرى مع الرياح، وتطير بغير جناح، وتعتاض عن
الحادى^(٣) بالملاح، تخوض وتلعب وتترد^(٤) ولا تشرب، لها قِلاع كالقلاع^(٥)، وشرع
يحجب الشعاع، وسكينة وسكان^(٦) ومكانة وإمكان، وجوؤ وفقار^(٧)، وأضلاع محكمة
بالقار^(٨)... بعيدة ما بين السحر والنحر^(٩)، من أحسن الجوارى^(١٠) المنشآت في البحر،
معهود بنواصيها^(١١) الخير كالخيل، لا تملُّ من سير النهار ولا من سُرَى الليل:

مالا رأى الناس من قصور على الماء ء سواها تسير سير القداح^(١٢)

كأنها وعل^(١٣) ينطُّ من شاهق، أو عزباض^(١٤) قسابق يحثه سائق، أو عقرب
شائلة^(١٥)، أو عُقاب صائلة^(١٦).. حاكمها^(١٧) عادل في حكه، عارف بنقض أمرها
وبرمه^(١٨)، ويهتدى بالنجوم، ويبتدى باسم الحى القيوم.. وبينما نحن من البحر في
قاموسه^(١٩)، كتب الجو حروف الغيم في طروسه، وثار ربح عاصف، يتبعها رعد

(١) تبج: وسط

(٢) دسر: حبال

(٣) الحادى: سائق الإبل بالحذاء وهو الغناء للأبل

(٤) ترد: من ورود الماء وبلوغه

(٥) قلاع الأولى: شرع السفينة جمع قلع. وقلاع الثانية: جمع قلعة وهى الحصن.

(٦) سكينة: وقار. وسكان السفينة: دفتها.

(٧) الجوؤ: صدر السفينة. الفقار: جمع فقارة وهى الواحدة من عظام سلسلة الظهر.

(٨) القار: القطران.

(٩) السحر: الرثة، النحر، أعلى الصدر.

(١٠) الجوارى: السفن.

(١١) نواصيها: مقدماتها. وفى الخيل: الشعر فى مقدمة الرأس.

(١٢) القداح: السهام.

(١٣) الوعل: ماعز الجبل الوحشى

(١٤) العرياض: البعير الضخم

(١٥) شائلة: رافعة ذنبها.

(١٦) صائلة: واثبة جائلة

(١٧) حاكمها: ربانها

(١٨) برم الحبل ضد نقضه والاستعارة واضحة

(١٩) القاموس: البحر ويريد هنا لجة العظيم

قاصف، فمالت بنا الفلك^(١) واضطربت، ودنت شفقتها من رشف الماء واقتربت، واستمرت تعلوا عل الأوتاد^(٢)، وتهيم في كل واد. وتضرم في الكبود نار ناجر^(٣)، إلى أن (بَلَّغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ^(٤))... ثم نظر إلينا من لا تخفى عليه السرائر، وأمر الجارية^(٥) بِحَمْلِ عَيْدِهِ إِلَى بَعْضِ الْجَزَائِرِ".

ونزلوا الجزيرة وتزهوا في رياضها ورأوا فيها نهر أرضه ذهب وحصاؤه درر. ويمضى ابن حبيب في الوصف بهذه اللغة النقية الصافية وذلك السجع القصير الذي يمتع الأذان والأذهان يجرسه وما بين الألفاظ من ملاءمات تجعل السجع يلذ الألسنة حيث تنطق به، ويسر القول حين تستمع إليه. وبق يقول ناصر الدين بن البارزى في الكتاب مقرظاً له: "لقد أشبه الدر في انتظامه، والثغر في ابتسامه، وقطر الندى في انسجامه، وزهر الروض في البكر إذا غنت على غصونه مطرباً حمامه.. فهو في اللطافة كالماء في إروائه، وكلاهواء المعتدل في ملاءمة الأرواح بجوهر فائه، وكالسلك إذا انتقى جوهرة وأجيد في انتقائه". وقد ختمه ابن حبيب بفصلين بديعين في الحكم والمواعظ، ودائماً يوشى أسجاعه بمحسنات البديع من الجناس وغيره.

(هـ) فاكهة^(٦) الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

مؤلف هذا الكتاب ابن عريشاه احمد بن محمد الدمشقى الحنفى ولد بدمشق سنة ٧٩١ ونشأ بها وطلب العلم فيها، حتى كانت طامة تيمور ومحاصرته لدمشق ونهب جنوده التتار لها وإشعالهم النيران فيها، مما جعل أسرة ابن عرب شاه ترحل إلى الأناضول، ومنها رجلت إلى إيران وأوغلت إلى سمرقند عاصمة تيمور، وأستطونها ابن عريشاه مدة.. وحُبِّبت الرحلة ولقاء الشيخوخ إليه، فطاف بكثير من البلدان وأخذ عن علمائها وأدبائها، واستقر في الأناضول أو آسيا الصغرى عند السلطان العثمانى محمد

(١) الفلك: السفينة

(٢) الأوتاد: الجبال

(٣) ناجر: أش أشهر الصيف حرارة

(٤) أي نبت عن أماكنها في الصدور فبلغت الحلقم، والى كناية عن شدة ما أصاب القلوب من الفزع.

(٥) الجارية: السفينة.

(٦) طبع هذا الكتاب في مصر مرارا وانظر في ابن عريشاه النجوم الزاهرة ٥٤٩/١٥ والضوء اللامع للسخاوى ١٢٦/٢ وكذلك كتابه التبر المسبوك ص ٣٢٥ وشذرات الذهب ٢٨٠/٧ والبدر الطالع ١٠٩/١ ومقدمة كتابه: "فاكهة الخلفاء".

الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ) وولاه ديوان الإنشاء فكان يكتب عنه إلى أمراء الأطراف باللغات الثلاثة التي كانت يحسنها: العربية والفارسية والتركية، وترجم له عن الفارسية كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى الذي اتم تأليفه سنة ٦٣٣ للهجرة، ويقال أن عدد حكاياته كان يزيد على ألفي حكاية. وعاد بعد وفاة هذا السلطان العثماني إلى الشام وأقام بحلب، وخلص حينئذ للدرس والتصنيف. وهاجر على القاهرة في عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) ومر بنا في الفصل الثاني أنه كتب له سيرة، وتحتفظ دار الكتب المصرية منها بمخطوطة. ومر أيضا أنه كتب سيرة لتيمنور سماها عجائب المقدور في نوائب تيمور، وهي مسجوعة، وطبعت مرارا. وكان يحسن النظم والنثر ويجيد الكتابة- كما اسلفنا- في العربية والفارسية والتركية، وصنف في الفارسية كتابا على غرار كتاب محمد عوف سماه (مرزبان نامه" طبع قديما، وعنه نقل كتابه "فاكهة الخفاء" نثر مسجوعا. وتوفى بالقاهرة عام ٨٥٤ للهجرة.

وكتابه "فاكهة الخفاء ومفاكهة الظرفاء" يشتمل على حكايات كثيرة، وهي موزعة على عشرة أبواب مروية عن الشيخ أبي المحاسن حسان يرويها عن الحكيم "حبيب"، وهو الابن الصغير لملك، ترك خمس إخوة تملك أحدهم واطاعة إخوته، ثم دب الحسد في نفوسهم، فرأى أخوهم الصغير "حبيب" أعتزلهم، فاستأذن أخاه الملك في العزلة وذكر له أنه يعتزم تأليف كتاب يشتمل على فنون من الحكمة، فاستصوب رأيه غير أنه وزيرا له شككه في مقصد أخيه وأن ذلك منه مكر وخديعة، وأشار عليه أن يجمع بينه وبين حبيب ليظهر زوره ومينه أو كذبه. فجمع الملك أعيان الدولة علماءها وفضلاء أخذ حبيب يسوق حكمه ووعظه في أسلوب قصصي مسجوع بديع، وكان من ذلك هذا الكتاب بأبوابه العشرة الطريفة. والباب الأول في ذكر ملك العرب، ومعه أربع قصص: قصة الضحاك الملك الفارسي الأسطوري القديم، وقصة قابوس بن وشمكير أحد أمراء الأسرة الزيارية التي حكمت طبرستان وجرجان في القرن الرابع الهجري وقُتل أعوانه له، وقصة بهرام جور الملك الساماني الذي كان مشهورا بالفروسية وكثرة الصيد مع الفتاة التي رآها وسرعان ما صادته- كما يقول ابن عرب شاه- بلظها المكسور فأمسى قلبه وهو في يدها مأسور وما كان من اقترانه بها، وقصة ابن آوى مع الحمار وكان قد حاول أن يقدمه مأدبة لذبح فقدم الحمار مأدبة للكلاب. والباب الثاني في وصايا ملك

العجم وفيه قصص طريفة منها قصة تحكى ما جرى لابن سلطان بابل مع عمه الظالم الخاتل. والباب الثالث في قصة خاقان الأتراك مع خنته أو صهره الزاهد شيخ النساك. والباب الرابع قصص عن الإنسان وعالم الجن والعفاريت. وقصص هذه الأبواب جميعا تدور حول السيرة الحميدة للحاكم وما ينبغي أن يأخذوا به الرعية من العدل مع بيان الأخلاق الذميمة ومع استعمال الحكمة وحسن التدبير حتى ينال الإنسان ما يأمل، ويأمن ما يحذر.

والأبواب الخمسة التالية قصص عن الحيوان والطيور على طريقة كليلة ودمنة، وقد أشار إلى ذلك المؤلف في مقدمة كتابه قائلاً أن الحكمة إذا قيلت على أسنة الوحوش وما غير مألوف الطباع من البهائم والسباع وأصناف الأطيوار وسائر الهوام مالت إليها الأسماع ورغبت في مطالعتها مكارم الأخلاق من الوفاء وغير الوفاء أصغت الأذن إلى استماع أخباره، وتلفتها الصدور بالانشراح، ونفوس الناس بالارتياح. وتخللت هذه الأبواب جميعا قصص بديعة، وكثيرة منها فارسي الأصل كما يدل عنوانها مثل قصة كسرى القديم مع وزيره بزرجمهر الحكيم وسقوط خاتمه الثمين منه في الماء والتقام بطة له زحزحه عليه ورجوعه إليه. وذكر في الباب العاشر قصة كسرى أنوشروان مع الشيخ الهرم الذي رآه يغرس في بعض البساتين مع انحناء قامته وبياض هامته ومع شدة عنائه وتعبه في زرع غرسه ونصبه. وختم الكتاب ابن عرب شاه بقصة جنكز خان الذي طم العالم بالفساد، وأهلك العباد والبلاد.

والكتاب زاهر بدقائق الحكمة والفتنة التي تهذب النفوس والتي تعود على الناس بالتهذيب في معاملتهم والعدل في حكمهم والكسب في معاشهم والعمل الصالح لمعادهم. ويلحُّ الكتاب على أن المال الذي في خزائن الحاكم إنما هو مال الرعية فينبغي أن يُنْفَق في مصالحها وحوائجها، وهو في يد الحاكم أمانتٌ وصرفه في غير وجهه خيانة. ويرسم الكتاب دائماً لقارئه الأخلاق الحميدة والشمائل الكريمة مع نفسه ومع أبناء جنسه ع رفق ولين للمساكين، ومع صلاة في الدين. وفي كل قصة وكل جانب منها تلقانا النصائح والحكم المعينة على الرشاد في الحياة، مع الاستضاءة من حين إلى حين بالآيات القرآنية. والكتاب مسجوع، غير أن لغته واضحة وقلما يكون فيها لفظ غريب. وقصصه رائعة، وحري أن تعرض على الناشئة مع إخلاتها مما جاء في

بعضها من ألفاظ مفحشة أو نابية. ولا نشك في أن ابن عرب شاه جلب فيها من الأفاصيخ خير ما قرأه في الفارسية والعربية من قصص الملوك والحكام وعلية الناس وصعاليكهم. ولا بد أن أضاف إلى ذلك بعض القصص من خياله، وقد رأى أن يحاكي كليلة ودمنة بقصص كثيرة، كما أسلفنا. والقصص جميعا تكتظ بالحكم على شاكلة ما قرأه في كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع الذي ألمنا به في حديثنا عن الجزيرة العربية، وقد ذكر ذلك صراحة في مقدمته للكتاب وحكمه كحكم هذا الكتاب تتردد بين الشعر والنثر.

وفى الحق أنه كتاب بالغ الروعة بما يعلم من شئون السياسة والحكم وبما يهدى إليه من البصر بالحياة وما فيها من فضائل تكتسب، وذرائل تجتنب، وما أروع الحكمة التي أجراها على لسان بعض الملوك في قوله لأبنائه ناصحا: "يا بنى أكتسبوا العلم والفضل وأدخروا اللحم والعدل، فإن أحتجتم إلى ذلك كان مالا، وإن استغنيتم عنه كان جمالاً".